

تقديم

تتطلب دراستي لهذا الفصل من البحث ، بإيماني المطلق أن الموقف من المكان هو (موقف من الصراع الإنساني في الواقع. وموقف من العلاقات الاجتماعية السائدة، مضافا إليها الجوانب الفكرية والنفسية التي تحدد الممارسة أو النشاطات على المكان الفعلي)^(١).

إن ثمة أموراً تتحكم في بناء الشخصية الأندلسية، وفي تكوين مواقفها، تعود أغلبها إلى الجوانب السياسية ، أو إلى الجوانب الاقتصادية أو الاجتماعية .. وغير ذلك. وكل تلك الأمور تترك في الشخصية أثراً قد تؤدي إلى فقد الأهل أو الوطن أو الوظيفة أو المنصب.

في الفصل الأول ، كان الحديث عن المكان يتعلق بكونه ظاهرة تُعد أساساً في إحساسنا وتشخيصنا للأشياء من حولنا ، لا سيما أماكن الطبيعة أو أماكن السكن الاجتماعي أو الأمكنة المعادية. في حين رأينا في الفصل الثاني أن الحديث كان مركزاً على الحدث (التاريخي ، الحربي، الحضري) . وبناء على هذا الحدث استأثر المكان بخصوصيته. وجاء في أبيات النص هنا وهناك عند الشعراء الأندلسيين على حقيبتهم المختلفة.

أما في هذا الفصل ؛ فلربما تلعب الذات الإنسانية — الشاعرة — الفعل البارز في الحديث عن المكان ، إذ إن مشاعرنا وأحاسيسنا وكوامنها العاطفية هي التي تحدد موقفنا من الأشياء والأحداث والأشخاص ، ويكون المكان — هو الآخر — من هذه المسميات التي تكون للشخصية الأندلسية موقفاً منه، سواء أكان هذا الموقف يشكل غربة، أم يحكي حنيناً، أم يقص بكاءً أم يسمع عويلًا.. وغير ذلك.

إن موقف الشاعر من الأشياء حوله موقف محاط بالعوامل السايكولوجية أولاً وأخراً، وإن هذه العوامل هي التي تجعله يمارس العملية الأدبية بأي حال من الأحوال ، فالشعر — قبل كل شيء — هو مشاعر الإنسان تجاه ما يحيط به. وما يرافقه في حياته من تغير وتبدل وتحول ، يقول ابن رشيق: (وإنما سُمي الشاعر شاعراً ، لأنه يشعر

(١) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام : ص ٢١٩.

بما لا يشعر به غيره^(١). على أن تلك الشعاع - مهما كانت مرمفة وصادقة - لا تكون ذات قيمة إذا لم تثر فينا احساساً، أو تترك بناء أثراً، وفي هذا يقول الناقد ت. س. أليوت وهو يتحدث عن قيمة الشعر إنها (لا تتركز في مشاعرنا ، ولكن فيما تصنع في مشاعرنا من صور)^(٢).

(١) العمدة: ١١٦/١.

(٢) الشعر العربي الحديث - قضايا وظواهره الفنية: د. عز الدين إسماعيل ، دار العودة ، بيروت. ١٩٨٨. ص ٢٣٠.

المبحث الأول : الاغتراب.

درج معظم الباحثين — المحدثين — في حقل الدراسات الأدبية على تعميم مصطلحي الغربة والاغتراب في مثل هذه الدراسات^(١). والتعريف بهما والبحث في أصليهما كونهما وجهين لعملة واحدة. وجملة الأمر في هذا العنوان هو اعتناء أولئك الباحثين بما أورده أصحاب المعجمات من أن الاغتراب بمعناه اللغوي يعني النزوح عن الوطن، والتغرب عن المكان الذي يقيم فيه الإنسان^(٢).

على ان الموضوع ليس مقتصرأ على الجانب اللغوي وإن كانت له أهميته التي لا تُنكر . فإن الدراسات الأدبية المرتبطة بعلم النفس^(٣)، ومدى تأثير هذا الأخير على تصرفات الإنسان وتوجهاته المختلفة ، قد طورت كثيراً من المفاهيم والمصطلحات التي تتعلق بمفاهيم اللغة أو مصطلحات الأدب . وبناءً على هذا التطور أصبحنا نرى فرقاً بين الجنس في الأدب؛ إنا نريد به الجنس الأدبي كالشعر والنثر .. أما فيما علم النفس فقد يكون الأمر مختلفاً عن ذلك تماماً ، وقس على ذلك.

وتأسيساً على الحالة الشعورية للمرء ، وتبعاً للظروف الخارجية والداخلية المحيطة به يبرز غرض دون آخر، ويتألق شعر ويخفت ثأن، ويبدع إنسان وينشل غيره.. وهكذا . غير أن سمات الابداع ، لا سيما الأدبي، تنبئ مرهونة بالعاطفة والذوق، أي عاطفة المنشئ وذوق المتلقي ، وهذان هما اللذان يتمتعان بالأساس. ويكونان -في الأغلب- الحكم الفصل في النصوص الشعرية التي وصلت إلينا وببار سدى جودتها وقيمتها — فناً وموضوعاً —.

-
- (١) يُنظر : الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: ص ٨-٩، الغربة والاغتراب في الشعر العراقي المعاصر — مرحلة الرواد —: محمد راضي جعفر، (رسالة ماجستير)، كلية التربية — ابن رشد، ١٩٩٥، ص ٢. ندوة حول مشكلة الاغتراب: د. فتح الله خليف، مجلة عالم الفكر، مج ١٠، ع ١٤، ١٩٧٩، ص ١١٤، الاغتراب في الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري: د. سميرة ملامي، دار الينابيع — دمشق، ط ١، ٢٠٠٠، ص ١٦.
- (٢) يُنظر : البارع في اللغة ، أبو علي القالي (ت ٣٥٦) وتحقيق: د. هاشم الطعان ، مكتبة النهضة — بغداد — ١٩٧٤، ص ٣٠٧. الصحاح وتاج العربية، الجوهري (ت ٣٩٣)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. مخر. ١٩٥٦: ١/١٩١، لسان العرب (غرب): ١/١٣٧ — ٦٣٩.
- (٣) يُنظر : التفسير النفسي للأدب: د. عز الدين إسماعيل ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٥٠٧. نفس الشعر من المنظور النفسي: ص ٣٧-٣٩.

بدءاً؛ يمكن القول أن مصطلح الاغتراب هو حالة نفسيه تصور مستوى (انعدام السلطة والانخلاع، والانفصال عن الذات.. والأشياء أو التمسك، العناء والعزلة، وانعدام المغزى في واقع الحياة والاحباط)^(١)، وما نلاحظه في كل هذه المفاهيم أن حاله شعورية قابعة داخل نفس شجية، وهو — أي الاغتراب — حالة مغيبة سخرية يلجأ إليها الشاعر حين يريد أن يبيح لنا عن تدهور أدبه. وفقدته لابتداعه لسبب ما، ومن ثم انعدام سلطته الأدبية عموماً، فيزول كيانه ويتلاشى بعد أن كان مثلاً بخسدي وأثره ذعسا يُضرب^(٢).

وما لاشك فيه أن عوامل الاغتراب وأسبابه كثيرة، يمكننا أن نجمل أهمها في:
أ — العاهة الخلقية: كالعمى مثلاً^(٣). إذ أن مثل هذه العاهة قد تزيد من حدة العوامل النفسية إلى جانب العوامل الأخرى — التي سنذكرها — تساعد على اغتراب الذات المبدعة وتشل حركتها الطبيعية في سبيل الحصول على قوتها. أو تمنعها بقرار كافٍ من أسباب العيش.

ب — العوامل الاقتصادية^(٤): يُعد الجانب الاقتصادي من الجوانب المهمة في حياة المرء، لاسيما صاحب الموهبة والابداع، فالأديب — كمبدع — لا يمكن أن يتنازل عن مستوى معيشي مرموق يليق به وبأدبه في كل عصر.

ج — حياة الأديب نفسه: لقد تعرض الكثير من الشعراء لحالات اجتماعية مرهقة دعته في حالي قلق دائم، وخوف مستمر، ووسمت بعضهم بسمات غير سوية، وبناءً على هذه السمات كانت حياتهم مغتربة، وساعدت الظروف التي ذكرنا بعضها — كالجانب الاقتصادي — على زيادة الطين بلة، وأبقت تلك الحالات في تصاعد مر من.
د — ضياع الأدب والشعر خاصة: إذ أرتقى فيه الذي يعلمه وأهميته سلطة لاشتغالها بالحروب والفتن، وتدهور الحياة الثقافية للمجتمع، فإن مثل هذه الأمور لا تليق

(١) الاغتراب — اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً — : قيس النوري، مجلة عالم الفكر، مج. ١٠، ع. ١٠٦، ١٩٧٩.

ص ١٣.

(٢) ينظر: م. ن. : ص ١٥.

(٣) كتبت رسالة ماجستير عنوانها: الاغتراب في شعر أبي العلاء المعري، للباحثة: رفل حسن طه، كلية التربية ابن رشد — جامعة بغداد، ٢٠٠٠.

(٤) هناك اسهامات للاقتصاديين في بحوث الاغتراب وقد خرجوا بمعلومات احصائية عن ارتباط علم الاقتصاد، بعوامل الاغتراب. ينظر: الاغتراب — اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً — : ص ١٠٦، الاعتراف في الشعر العباسي: ص ١٠٦ — ١١٠.

للأديب الأريب، وهو يبحث في أسباب شهرته، وعوامل تميزه بين الناس، بالموهبة التي أعطاها الله - سبحانه - له على حساب الآخرين. فعندما يفقد هذه الموهبة الربانية لا بد أن تكون الحالة المعاشة له حالة مضطربة غير مستقرة.

هـ - إهمال الشاعر من قبل المجتمع عامة، بل؛ والتنافس في سبيل ايدانسه. وربما يكون هذا الإيذاء بطرق عدة، كـ:

١ - عزله إدارياً ووظيفياً.

٢ - التنافس في الرزق في سبيل حرمانه اقتصادياً.

٣ - إخضاعه لأنظمة اجتماعية قاسية، بغية النيل منه في كل وقت. واضعاف قدرته الأدبية وإشعاعه الفكري المؤثر، فيبقى هكذا بلا حول أو قوة^(١).

وربما لا نجد عوامل الاغتراب كلها في اغتراب الذات الأندلسية. ولكن قد نجد بعضها عند كثير من الشعراء، والمهم في حديثنا هنا أن يبقى التركيز على المكان مهما كان - خيالاً أو واقعاً أو مفترضاً - فعليه تُبنى (التجربة الإنسانية العميقة التي خاضها الشعراء العرب خلال العصر، وجسّدوا من خلالها الحس الأصيل بالوطن المرتبط بشكل صميم في الوجدان)^(٢).

وعلى أية حال؛ تبقى المادة الأولية في بحثنا - الشعر - هي التي تضع أديبنا على مزاي الاغتراب الأندلسي، وكيف عانت الذات الأندلسية الشاعرة من حرمان وضياح وإهمال.

إن عوامل الاغتراب في شعر الجزار السرقسطي لم تتجاوز ضياح الشخصية الأدبية، وتغير الظروف نحو الأسوأ. وتدهور الأدب في عصره. هذا فضلاً عن (العوامل الذوقية، وصفاته الشخصية، حيث كانت فيه حدة مزاج ووعورة خلق إلى جانب الفقر التي كان عليها الشاعر، وتمرد الأيام عليه، وانفلاتها من يديه)^(٣). ولذا نراه في اغترابه هذا ساخطاً على دنياه التي ألت إلى غير أصحابها من المبدعين والمميزين، على أن هذا السخط مشوب بأسباب القدر والرضا بمتطلبات الدنيا التي لا

(١) هناك عوامل أخرى للاغتراب منها تسلط الطبيعة القاهرة وظروفها الصعبة لاسيما في الشعر الجاهلي. ومن عوامل هذا الاغتراب في هذا العصر أيضاً، السواد وإشارته للعبودية، والنظام القبلي المتسلط على الفرد. ينظر: الاغتراب في شعر طرفة؛ عبد الفتاح تافع، المورد، مج ٢، ٢٠٠٢، ص ١٨ - ١٩. فقد ذكر بعض هذي العوامل • الاغتراب في الشعر العباسي: الفصل الثالث (ص ١٠١ - ١٢٠).

(٢) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام: ص ٢٤٢.

(٣) ديوانه: مقدمة المحقق: ص ٢٩.

لا تدوم على

حال، ولا تستقر بشخص، يقول:

مَا بَالُ دُنْيَايَ الدُّنْيَا لَمْ تَقَمْ أُوْدِي، أَكَلْتُ مَفْسُودًا، مُحَرُّومٌ؟
لَا تَجْزَعِي يَا نَفْسُ إِنَّ خُطْبَ غَدَا فَالْحَرَّ يَعْثُرُ تَكَارَةً وَيَقْشُرُ
فَكْذَا الزَّمَانُ بِأَهْلِهِ مُتَقَلِّبٌ لَا الْبُؤْسَ فِيهِ وَلَا النِّعَمَ يَدُومُ^(١)

وإن هو ترك مهنة القصابة المزرية ليكون أدبياً ذا بال ، أو صاحب حظوة ثقافية عنده أهل الثقافة والأدب، زادت بلواه، وعظم اغترابه فلم يزدده الشعر مكانة، ولم يرفع به شأنًا، وهو المعروف بنظم الشعر، والمضروب به مثلاً في نظم القوافي وجودة القول، هاك قوله:

رَأَيْتُ قَوْمًا بِنَظْمِ الشَّعْرِ قَدْ وَصَلُوا إِلَى الْمُنَى وَأَنْبَلُوا فَوْقَ مَا سَأَلُوا
فَقُلْتُ: مَالِي لَمْ أَسْأَلْكَ سَبِيلَهُمْ أَلَيْسَ بِي فِي الْقَوَافِي يُضْرَبُ الْمَثَلُ
لَوْ أَنَّ نَظْمَ غَرِيبِ الشَّعْرِ مَعْرُكَةٌ مَا كَانَ غَيْرِي فِيهِ الْفَارِسُ الْبَطْلُ

ثم يصب لنا حال الشر . وكيف أنكر . ولا كأنه الذي رفع أقواماً وأذل أخرى . ولا كأنه أغنى أناساً وأفقر آخرين، ولا كأنه جعل صاحبه — على مدة من الزمن — صاحب ولاية، أو حاكم مقاطعة، الآن يصبح الشعر مجاعة، ويمسي صاحبه محروماً، ومثلثه بخيلاً معرضاً:

لَمَّا بَدَأَ لِي أَنْ الشَّعْرُ مَسْغِيَةٌ وَحِظْتُ نَازِمَهُ الْحَرْمَانَ وَابْخَلْتُ
عَدَلْتُ عَنْهُ وَقُلْتُ: الْمَوْتُ أَيْسَرُ مِنْ تَسْأَلِ قَوْمٍ إِذَا مَا أَسْتُمْنَحُوا بَخْلُوا

وحتى القصابة — التي عاد إليها — أنكرته، وأبقت عليه مغترباً بين أهله ومكانه وخلّانه، إنها الآن تجفوه ولا تصله بعد أن كانت به غراء واصلة. إنها معاناة نحو أخرى، وبلوى على بلوى:

(١) ديوانه: ص ١٨٢.

حسبي القصابة لا أبغي بها بدلاً من قَرَّ بالشَّيء عيناؤه عزَّه البدلُ
وكان عهدي بها غراءً واصلهً إذا بها فاركٌ تجفُّو ولا تُصل^(١)

ولذا لا سبيل إلى ترك المهنتين — القصابة والأدب — ما دام لم يعرف بالأولى الأمل،
او وصل بالآخرى إلى المنى، فبقي مذبذباً لا إلى هذه ولا إلى تلك:

لا بالقصابة أستولي على أمني ولا بشعري إلى نيل المنى أصلُ
مذبذبٌ غير حاذٍ في سبيلها مثل النعامة لا طيرٌ، ولا جمل^(٢)

إن مثل هذي الأبيات اجتنبت من واقع ومرير، وحال باكية، فقد أحسَّ السرقسطي
باغترابه الاجتماعي، والأدبي، والنفسي — الشعوري — . وفي كل هذه الحالات التي
مر بها لم نره يترك مكانه أو مدينته. بل: بالعكس تماماً إذ هو يلقي باللائمة، ويرمي
بالنقريع والتوبيخ على رجل رحل عن سرسقة فاراً بها حذار العدو . وأظهر في قراره
المسير إلى الحج، فلما أبصر البحر جزع وانصرف. يقول السرقسطي واعظاً ناصحاً :
لا ابتغي بعد المواطن عيشة ترك المواطن محنة الأحرار
والبحر أصعب ميتة لغريقه من ميتة بعوامل وشفار
وأحق من نال الشهادة مقصداً بالمشرفة والقنا الخطار
أو ليس أفضل أن أموت مجاهداً من أن أموت لقي غريق بحار^(٣)

وتعلو أصوات السرقسطي المؤمنة بالقدر ، أيما كان، خيراً وشرّاً، صبراً لا
جزعاً، إيماناً لا خوفاً، وقد مرت به كل الخطوب الرزق الحال المعنوية ، العصر . لكنه
لم يجزع ولم يكسل ما دام قوله:

المرء تحت تصرف الأقدار لا يدفع المحذور طول حذار^(٤)

(١) نيولاه: ص ١٧٢-١٧٣.

(٢) م. ن. ص ١٧٣.

(٣) م. ن. ص ١٨١.

(٤) م. ن. ص ١٨٠.

إن الاغتراب هنا صرخة مدوية، وحالة نفسية منازمة تركت شرخاً عميقاً في نفس المبدع، ثم في إبداعه، وإذا كانت نصوص الجزار السرقسطي التي عرضناها لم يكن فيها المكان قد عولج بصورة مباشرة أو بمدخل سريع، فإن اغتراب ابن عبدون الشاعر الذي يبدو شعره أكثر تمثيلاً للمكان، وحالته أعمق تأزماً من حالة الجزار السرقسطي. فقد شهد سقوط بني الأفطس، وشهد تغير الحال، ومن ثم فإن حصر - اشبيلية - زادت اغترابه، وأثارت حفيظته نحوها كمكان، يقول:

فلم أكن وسوئ بغداد لي أملٌ فيها كما كنتُ في أهلي بمغترِبِ
وإن نبتَ حمصُ بي والله يعصمُها ركبُها عزيمةً تشاي الكواكبَ بي^(١)

وفي قصيدة أخرى مدح بها المعتمد بن عباد والي اشبيلية شكاً فيها حاله واغترابه، فالاغتراب يرتبط مفهوماً ودلالة مع المديح بشكل عميق^(٢)، والذي يبيننا هو أن نتلمس آثار اغتراب ابن عبدون في هذا النص المدحي، ففيه ارتباط الزن - الممر - المكان - اشبيلية - في نفسية شاعرنا والامه:

يَا دهرُ إن توسعَ الأحرارُ مظلمةً فاستثنى إن غلبَ غيرُ مقروبِ
مهلاً فدرعُ حويلي غيرُ محتنةٍ عجباً وسيفُ عزيمةٍ غيرُ مقروبِ
ولا تخلصُ أنني ألقاك منفرداً إن القناعةَ جيشٌ غيرُ مغلوبِ
ما كلُّ من سيمُ خسفاً عافاً موردهُ إن الإباءَ لظهرُ غيرُ مَكروبِ^(٣)

إن الأبيات التي وصلت إلى القافية المكسورة بهذا الاستثناء أعطى لكل بيت حكمة، وترك الشاعر في مشاعرنا فخراً وعظمة. ففي البيت الأول؛ أدركنا أن دهر الذي وسع الجميع ظلمه، أنه قد يستثنى الشاعر في قوته وفخره بنفسه. فهو قد - انت سقطت بني الأفطس وضياح بطليوس، فلا ضير عليه أن يشاهد سقوط بني عباد وضياح اشبيلية.

(١) ديوانه: ص ١١٤.

(٢) ينظر: الغربية والاغتراب في شعر ابن دراج القسطل، د. محمد شوابكة، سوتة. عمان. ١٤٠٩. ص ١٤٢.

(٣) ديوانه: ص ١١٠.

وفي البيت الثاني؛ أعلمنا ابن عبدون أن سلاحه — الدرع والسيف — وهما الوزارة والشعر ستبقىان مشرعة دائماً أمام حوادث الدهر وتصرفاته ، لا ينتلمان إلا بالموت.

وفي البيت الثالث؛ وضع أماننا الحكمة التي تقول (القناعة كنز لا يفنى) ، وهي حكمة لشخص عانى اغتراب الحكام، والمكان.. وأن هذه القناعة على مثل هذه الظروف لم تكن لتحدث إلا لنفس أبيه، صامدة وهذا ما أراده في البيت الرابع.

إنها صورة واضحة تبين لنا قوة الإنسان الأندلسي، وشموخه وعزته بنفسه في ظروف قاسية، إن وقع في سمات الانهزام والذل والخسف — لا قدر الله — ما كان عليه من حرج أو ضيق.

وعند الشاعر التطيلي قد تضاف إلى العصر والفاقة والاحساس بالضيق عوامل أخرى تشكل الاغتراب الحقيقي للنفس البشرية ، فهو إذا أبغى بالعسى وصبر على ابتلائه . أبغى بفقد أهله — زوجه — التي أحبها فقد أمضت معه أيام البلوى وصبرت عليها على الرغم من كون زوجها أديباً — شاعراً وأديباً وشاحاً — ذات مكانة، وذا سمعة طيبة بين أهل الثقافة والعلم، لو لم يحيا في ذلك العصر وتحت تلك السلطة، فاعترابه في وطنه — اشبيلية — واضح، وهذا الاغتراب الذي أثاره المكان لم ينسه العمى . كثرة الشيب وضيق المعاش ، يقول:

أما اشتفت مني الأيام في وطني حتى تضايق فيما عن من وطري
ولا قضت من سواد العين حاجتها حتى تكر على ما كان في الشعر^(١)

ويبدو أن السلطة التي آلت إلى غير أصحابها — مقدره وإحكاماً — كانت شكوى التطيلي، وموقع اغترابه في قلبه ، لاسيما أن هذه السلطة المتعسفة كانت في اشبيلية فزادت الأمور سوءاً، وألفت بشاعرنا خصيم الزمان والمكان والناس. يقول عن تلك السلطة وصاحبها:

إلى الله أشكو الذي نحن فيه أسى لا ينهنه منه الأسى
على مثلها فلتشق القلوب مكان الجيوب وإلا فلا

فَشَا الظلمَ وأَغْثَرَ إشْياعَهُ ولا مَسْـتَغاثٌ ولا مُشـشـئٌ^(١)

وعن حال حمص، وما حل بها، يقول التطيلي معرضاً ما حل بها ويوازن الله بشاعر العربية المتنبى وما لاقاه في مصر، يقول التطيلي:

وماذا بحمصٍ من المضحكاتِ ولكنَّه ضحكٌ كالبكاءِ^(٢)

ولم يكتف شاعرنا التطيلي – المتقف – بهذا التضمين، وإنما عمد إلى أسلوب آخر من أساليب الشعر العربي قديماً وهو صورة المرأة اللانمة . عندما جلب الرمز المصور (ب (زهر) . وراح يبادلها الحديث وكيف قعدت بها الآمال، وقصرت عنه الآمانى عي مثل عصره الذي عاش فيه، يقول:

هَبَّتْ تُعَاتِبُنِي زَهْرٌ وَقَدْ عَلِمْتُ إِنَّ الْعَتَابَ شَجَى فِي الْقَلْبِ أَوْ شَجَبُ
قَالَتْ: قَعِدْتُ وَقَسَامُ النَّاسِ كُلِّهِمْ أَلَا يَعْلَمُكَ الْاِثْبِرَاءُ وَالرَّتْسَبُ
فَقُلْتُ: كَفَى عَنِّ مَقَارِعِي فِي أَرْمَةِ ضَاعَ فِي اثْنَائِهَا الْأَدْبُ^(٣)

إن الحوار البسيط ، ودعمه بالجناس في أول الأبيات (شجى، شجب) والتكرار بين (تعاتبنى والعتاب) أشاع جوا من أصوات العين والشين والحسيم، ومن ثم سارع الأصدات المهموسة بكثرة لا سيما (الناء) أغدق على البيات حسرة وابقى فيها روحاً متألمة باكية. ولاشك في أن الفعل (هبت) في بداية الأبيات صور لنا مدى الركود والخمول الذي آل إليه شاعرنا التطيلي، وبناءً على ما أصابه دُعرت لحاله المرأة – الرمز الوهمي – وأخذت تدعوه لأخذ مكانته الحقيقية ، ودوره الفعلى . في الحياة الاجتماعية والثقافية.

إن مثل هذه الصنعة – الحوار والحروف والرمز – قادرة على شرح حالة الشاعر في مقدمة القصيدة المدحية، لأن الممدوح لا يرى بُداً من تقديم العون والمساعدة لهكذا أديب في مثل عصره.

(١) ديوانه: ص ١.

(٢) يقول المتنبى : وماذا بمصر من المضحكاتِ ولكنَّه ضحكٌ كالبكاءِ

ديوانه: وضعه عبد الرحمن الرقوى، مطبعة السعادة، مصر . (د.ت): ١٦٧/١.

(٣) ديوانه: ص ١٦، شجب: حزن.

ومرة أخرى تقف اشبيلية التي أنتجتها التطيلي مكاناً للمغتربين حائلاً أمام اسأل التطيلي وطموحاته، فهذه ليست اشبيلية مدينة المعتمد أو مكان ابن اللاتة أو سـرطن ابن عمار، أنها تضيق ذراعاً بأصحاب الثقافات . تتكل عزائمهم ، وتزيد اغترابهم ، وتتبو بهم، يقول التطيلي في ذلك كله:

نبت بي حمصٌ جادها كل مرهم
وما كنت أخشى أن أحلَّ ببلدٍ
وما أخلوني لكن المجد أخلوا
وبين ضلوعي ما لو أن أقله
وينبني الحرمان عن كل مطلب
وتسهل الربا بالشكر أيتان يسمع
بها غصص من أهلها وهي بلقع
وما ضيعوني لكن العلم ضيعوا
بأكفاف رضوى أوشكت تتصدع
ونفسي عليه حسرة تقطع^(١)

إنه يخلق عالماً خاصاً به فيبني مطالبه على الحرمان، ويشكل علاقاته على التقاطع . ويذكر مجده بالخمول، وعلمه بالضياح . إن أصالة شعره تكمن في معرفته أسرار النفس الإنسانية فهو يلجها بشكواه، ويجعلنا نكي معه دونما شعور .

ابن بقي الذي عاش عصر المرابطين، وأحس بما أحس به التطيلي كان لاغترابه صدى طيباً في أشعاره . على أننا نود أن نقول أن العصر والضياع لم يكونا الأسباب كلها في اغتراب عصره، فلابد من القول ان ابن بقي شخصية قلقة في تاريخ الأدب الأندلسي . فهو قلق البال ، قلق السيرة ، لا يبقى على حال واحدة دائم السأم والضجر^(٢) . وهذه الخصائص بعض سمات الإنسان المغترب . إن لم نقل أكثرها^(٣) . ولكي نعرف أسباب هذا القلق والضجر — سنعود إلى اشعار ابن بقي من أبيات وقصائد . علنا نعثر على ضالتنا ، ونتلج صدورنا ونحن نريد الحديث عن عوامل الاغتراب التي تقف خلف عوامل السأم والقلق والاضطراب المعروفة في شخصيته.

(١) ديوانه: ص ٧٩، وينظر: ديوان الأعمى التطيلي — دراسة موضوعية فنية: ص ٥٠.

(٢) ينظر: موشحات ابن بقي الطليطي وخصائصها الفنية: عدنان محمد آل طعمة، دار الحرية للطباعة — بغداد ، ١٩٧٩، ص ٣٤ — ٣٦.

(٣) ينظر: الاغتراب في الشعر العباسي: ص ٣٤ — ٣٥.

ففي اغترابه بين أبناء جيله ، وفي عصره الذي ضاع فيه الأدب . وانتكر الشعراء^(١) يقول :

وضيعني قومي لأنني لسائهم إذا أفحجم الأقوام عند التلجم
وطالني دهرني لأنني زنته وأنني فيه غرة فسرق آدم^(٢)

إن (أنا) الشاعر واضحة وهي تنقطع بمصيرها المشؤوم . لاسيما وأنه أباي في ناحية المقطوعة عن تمكنه من أسباب الشعر ، واتقانه لأساليب البديع حتى سارت بأشعاره الركبان وغنت بها الحمام :

هو الشعر أجري في ميادين سبقه وأفرج من أبوابه كل مبهم
وسئل أهله عني هل امتزت منهم بطبعي وهل غادرت من مترد
سلكت أساليب البديع فأصحت بأقواسي الركبان في اليد ترتمي
وربما غنى به كل ساجع يردده في شجود والسترتم

وفي نص آخر يبدأه بالليل ، ويذكر كيف خيم عليه السواد وهو بين أجنبية مثلياً مثل الدهر ظلماً ، وقساوة^(٣) ، وهو لا ينفك من هذه الصورة الظلوم إلا لصورة الحرمان والضياح له ولأهل الأدب في زمنه :

أكل بني الآداب مثلي ضائع فأجعل ظلمي أسود في المظالم
أم الظلم محمول علي لأنني طلبت العلا من قبل حل التمام

وهو إذ يبكي هذه الحال ، فإنما يبكي الأدب — والشعر خاصة — ولا ذنب فيه غير زمانه وعصره :

ستبكي قوافي الشعر ملء جفونها على عربي ضاع بين أعماجم

(١) ينظر : الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس : ص ٢٣٧ وما بعدها ، الأعمى التتلي (حياته وأدبه) : عبد الحميد عبد الله الهرامة ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ، طرابلس . ١٩٨٣ . ص ١٥٦ وما بعدها ، الشكوى من العلة في أدب الأندلسيين : د. علي بن عبد الله بن تقيان ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ط ١ - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) - ص ٥٦ - ٥٧ .

(٣) ينظر : م . ن : ص ٩٣ .

ولا ذنب لي عن الزمان علمته^(١) سوى أنني للشعر آخر ناظم^(٢)

إن (الاغتراب شعور ينتاب الفرد فيجعله غير قادر على تغيير الوضع الاجتماعي الذي يتفاعل معه، والاستعمال الثاني للاغتراب؛ هو عدم وجود الهدف عند الشخص المغترب)^(٣)، ولذا ربما يجد المغترب أن تغيير المكان قد يفضي به إلى حال أكثر استقراراً، فيمسي مع أناس غير الذين عاش معهم. ويحل مع أحداث غير التي عاصرها. وهذا ما أراد ابن بقي عندما فكر في الرحيل عن أرض الأنس لا سيما أنه عانى اغترابه من حمص. كما عانى منها غيره، فكانت له المكان الذي أشعر نار اليأس، وأثار مشاعر البغض والكراهة، هاك قوله فيها:

منى النفس في حمص، وحمص لذي الحجب فوك لأمر ما تصد عن البقل
نبت بي كما ينبو الجبان بنصله ويحمل ما يأتيه ذنباً على النصل
وأيأسني من كل خير رجوته كثير وما شاحيت في الكثر والقل^(٤)

ولاشك في أن هذا المكان ما كان ليكون بمثل هذا التشاوم، ويحمل خصائص الحقد والكراهة لولا أهله الذين هم:

أناس كما شاء الزمان ولا كما تشاء المعالي عقدهم بين السر
أزورهم لا لوداد وقد دروا فيلقونني بين التسود والغل
وأمدحهم يا حسبي الله، كاذباً فيجزونني بالمنع شكلاً إلى شكل

إن الذات المغتربة تظل تناشد مكاناً جديداً وتبغى الوصول إليه فهو الأمل الجديد والحياة الآمنة التي يبحث عنها المغتربون - كابن بقي - فيظل يحن إليها. ويسعى لوصولها:

ولي همم ستقذف بي بلاداً نأت أمّا العراق أو الشام^(٥)

(١) ديوانه: ص ٩٤.

(٢) البطل المغترب في الرواية العراقية: د. صبري مسلم، مجلة الأقاليم، ع ٩٤، ١٩٨٨، ص ١١٣.

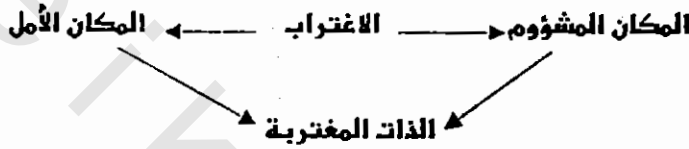
(٣) ديوانه: ص ٨١.

(٤) م. ن. : ص ٨٨.

ويقول في أخرى:

أنا امرءٌ إن نبتَ بي أرضٌ أنداسُ جنتِ العراقَ فقامتْ لي على قدمي^(١)

ربما يكون العراق منأى ابن بقي — وإن لم يصله —^(٢)، وربما يكون غير العراق منأى لغيره، وعلى أية حال، إن المكان — الأمل — يبقى منى النفس المغتربة، والذات الحائرة وهي تبحث عنه لتحيا فيه حتى ولو خيالا في الشعر. أو مفترضا في القول. إنه — أي الخيال أو الافتراض — نوع من أنواع الهروب عن الواقع بكل ملابساته المريرة، وتناقضاته الصعبة.



وفي ديوان يوسف الثالث نحس بعوامل الاغتراب سارية في بعض أشعاره وأسباب هذا الاغتراب تكمن في سجنه لمدة طويلة ومن ثم ظروف حكمه إذ فقد بعض هيبته في معاركه، أو فقد بعض أهله من ولد أو زوجة أو أهل^(٣)، وفي مقصورة استذكر بها الشاعر المرجي الذي كانت شبه ظروف حياته إلا أن الأخير لم يكن ملك سلطة إنما كان ملك كلمة^(٤). يقول يوسف الثالث، وفي قوله ما يشعر به الغريب في زمانه وأهله ومكانه:

فأني جيرتني بالغور أشكو وما يملك شكايتهم مِمامُ
رُعيتُ عهودهم فأضيع عهدي فسَيانِ الأضاعَةُ والذَمَامُ
كأني لم أكن فيهم جميعاً وتُفردني التحية والسلامُ
أضاعوني وأني فتى أضاعوا إذا حلت بعقوتها الطغَامُ

(١) ديوانه: ص ١٠٠.

(٢) استقر ابن بقي في سلا، إذ رأى بها بعض ما كان يتمناه. ينظر: ديوانه: مقدمة المحقق: ص ١٠.

موشحات ابن بقي: ص ٤٣ — ٤٤.

(٣) ينظر: ديوانه: مقدمة المحقق: م.

(٤) ينظر: الاغتراب في الشعر العباسي: ص ٩٠-٩١، الغربية المكانية في الشعر العربي. عبدة بنوي. عالم

الفكر، مج ١٥، ١٤، ١٩٨٤، ص ١٤.

"أضاعوني وأَيَّ فَتَى أضاعوا" لسدّ الثغرِ ثلثُـهُ اللثامُ
 "أضاعوا وأَيَّ فَتَى أضاعوا" كنصل السيفِ جذاً حُسامُ
 "أضاعوني وأَيَّ فَتَى أضاعوا" ليوم يرتجى فيه الجُـهـامُ^(١)

إن تكرار الشطر (أضاعوني وأي فتى أضاعوا) ، على هذه الشاكلة لا يكون له إلا تفسيراً واحداً وهو أن إلا أن معاني الضياع بقيت في ذهن شاعرنا الملك، ولذا كررها وأراد بها دلالاتها التي تعني ضياعاً لمكانة الملك الشاعر، أو لاحتاسه بنيانية حكمه.. أو لأنه مغترب . فالاغتراب يجعله يحس بكل احساسه هذه، وإن ما يروح به المغترب ما هو إلا جزء يسير من احساسه المبطنة ، ويبقى الجزء الأعظم من متاعه وعواطفه بين خلجات صدره، وخلف قضبان قلبه التي لا نعرفها ولن نعرفها.

إن البسطي القيسي الذي نقف عند شعره هنا كان مغترباً رافضاً، فهو لم ينسك من أسرهِ إلا لاحتراق حانوته، ومن ثم لفقده وظيفته وعزله منها، ولأنه شاهد فقد المصدن الأندلسية وهي تنهادى الواحدة فالأخرى أمام عينه، وكيف استبد بها رباطها العدو الحاقد. كانت هذه أسباب كافية لاغترابه، ولمرارة حياته التي عاشها.

وعودٌ إلى بدء في ذكرنا لأسباب الاغتراب في الشعر الأندلسي وغيره. قلنا أن العامل الاقتصادي أكبر تلك العوامل وأهمها، وبلا ريب أن (قطع الأعناق لا قطع الأرزاق) حكمة مأثورة أخذت من واقع ملموس، ومن تجارب معاشة. فالقيسي طالت فاقته ، والقائمون على رزقه — بعد الله — جعلوه يحيا حياة معدمة^(٢). مع أنه صاحب البيان ، والأمانة والاخلاص، هاك قوله فيمن حبس عليه مرتبه، ومنع صرفه:

ماذا تقولون لي يوم الحساب إذا طلبتُ حقي لكم في واجبِ الطلبِ
 والله سبحانه ما بيننا حكماً يقضي عليكم به القهر والغلبِ
 فاجلبِ لنفسك ما ترجو الخلاص به من الأداء فيا توفيق من جلبِ
 وحظ نفسك دُع الله محتسباً قبل الممات وأعط الحق من طلبِ^(٣)

(١) ديوانه: ص ١٢٧. والتضمين من ديوان العرجي، تحقيق خضر الطائي، رشت المبيدي . بغداد . ١٩٥٦.

ص ٣٤.

(٢) ينظر: الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري: ص ٢٦١.

(٣) البسطي آخر شعراء الأندلس: ص ٦٠ ، ديوان عبد الكريم القيسي: ص ٢٢٣ — ٢١٤.

وحتماً أن تكون معيشته ضنكا، وحاله لا يسر عدوا ولا صديقا:
 أكاد لفرط ما ألقاهُ أفنى وللشكوى التي أشكو أذوبُ
 فدمعي في الخدود له أنسكابٌ وقلبي للأوار به لهيبُ
 وليلي للكتابة مدلهمٌ ويومي للذي أشكو عصيبُ
 وقد أصبحت في كربٍ عظيمٍ وعيش لا يلد ولا يطيب^(١)

إن النظرة التشاؤمية هذه لم تقتصر على المعيشة، فإنه - أي القيسي - حمل صفات
 العدا لاولئك الأشخاص ، فأصبح يزري بهم في كل مقال ، وأمام كل مقام، فالاغتراب
 عنده اغتراب العيش ، والأحباب، والوظائف والأماكن ، ففي اغترابه من الأحباب
 والأصدقاء هاك قوله وهو ينفي عن الصديق صفاته المعهودة في حفظ السر والوفاء
 ودوام المودة:

إن شئت من دنياك حسنٌ تخلص وإذا تخالطه كثيراً عدهُ
 لا تظمنن إلي صديقٍ مخلصٍ والناس كالمجذوم أو كالأبرص
 منكم الكلام بما اقتضاه تربصٌ والنزَم سكوتك عدهُ وإذا اقتضى
 ويتيه أعجاباً بعين الأحوص وانظره محاسنه التي يزهو بها
 فيجيء من عدوانه بملخص^(٢) إن الصديق ليس تحيل تغيراً

ومن الطبيعي أن يشكو المغترِب ما حل به، فيمدح ليصف حالاً أو يذكر عوزاً،
 ويحب ليعبر عن فقدان أمانة وضياع وظيفة لاسيما تلك التي ترتبط ارتباطاً مباشراً
 بالدين، تعتمد العهدة عليها، كالفقيه أو المحدث أو القاضي. فكيف كان هؤلاء على عهد
 البسطي؟ وكيف كانت نظرته إليهم؟ أما القضاة فكانوا - والعياذ بالله - يبرمون النكاح
 بلا صداق، ويغيرون الأحكام ، ويأتون بالعجيب في أحكامهم وأوامرهم، يقولون في
 قاضي بسطة ابن مفضل^(٣):

تباً لقاضي بسطة ابن مفضل تباً له فيه يروح ويغتدي

(١) البسطي آخر شعراء الأندلس : ص ٦١، ديوان القيسي: ص ١٢٩.

(٢) البسطي آخر شعراء الأندلس: ص ٨٦-٨٧، ديوان القيسي: ص ٤٤٣.

(٣) أشار د. محمد بن شريفة أنه لم يعثر له على ترجمة فيما توفر لديه من مصادر. البسطي : ص ١٩٤، وكذلك نحن.

فلقد أنسى من حكمه بعجائب أمثالها في عصرنا لم تعهد
فالسجن عند سواه معروف المحل وعندد فالسجن جوف المسجد
ويرى النكاح بلا صداق جائزاً رأي الأغوي الجاهلي الملتبس
ويغير الأحكام عما أضلت تغيير جبّار عنيد معتدي^(١)

ولم يكن حال الفقهاء بافضل من حال القضاة ولا أحسن منهم، بل بانعكس
انجرفوا وراء أهوائهم، وافتوا بما فيه صالحهم ، فضلوا وأضلوا. يقول فيهم البساطي
معرضاً ومنهدداً:

الكلب صار ببسطة أعلسى وأشرف من فقيهه^{*}
أنسى فقيره يعتلي لمحاً أو يرتقيه^{*}
الكلب مال كفه بها من كل ما يخشى يقيه^{*}
وفقيهها من أهلها ما ساء مشهم يتقيه^(١)

إذا كانت هذه هي الحال المادية، والاجتماعية والدينية، فإن بسطة تحولت إلى
أرض اغتراب، وأن الذي يحياها كأديبها القيسي لابد من أن يشعر باغترابه فيها لأن
الأحوال التي ذكرناها أنفاً تقضي به إلى هجر المكان والرحيل عنه مهما كان فالقيسي
البساطي يرى في بسطة مقام ذلة ، وضيم زمان ، ولا يرضى بعيشها إلا دليل عاجز ،
ظالم لنفسه :

خليلي ما مثلي يقيم ذليلاً ويحمل من ضيم الزمان ثقيلاً
ويرضى بعيش لا يزال ببسطة يجدد من خطب الهموم جليلاً
فلا تعلمواني في رحلي عنكما فباني لما القى عزمت رحيلاً
فكيف لنفسي أن تقيم ببلدة تشاهد فيها مثل ذا وتقيلاً
فإن من العجز الشواء بموطن يكون به الظلم الذميمة نزيلاً^(٢)

إن الاهتمام الذي تعرض له الفقيه الشاعر - القيسي البساطي - في بكه كل انعكاساً
على أدبه، فأصبح يقول أشعاراً في ذمه ويهجو أهله فمن ذلك قوله:

(١) البساطي آخر شعراء الأندلس: ص ١٩٤، ديوان القيسي: ص ٢٤٣، وانظر في القضاء: ديوانه: ص ٢٧١.

(٢) البساطي آخر شعراء الأندلس: ص ٧٠-٧١، ديوان القيسي: ص ٣١١.

(٣) البساطي آخر شعراء الأندلس: ص ٥٦-٥٧، ديوان القيسي: ص ١٢٧.

أَيْهَا الصَّبُّ بِسُكْنَى بَسْطَةٍ يَبْتَغِي العِزَّ بِهَا وَالشُّرْفَا
 اتَّصَرَفَ عَنْهَا لِسُكْنَى غَيْرِهَا فَكَلَّا الْأَمْرَيْنِ عَنْهَا اتَّصَرَفَا
 لَا تَوَمِّلْ نَيْلَ شَيْءٍ مِنْهُمَا مَا عَلَيْهَا الْمَلُوانِ اخْتَلَفَا
 بِلَدَةٍ فِيهَا الْهُوَ مُنْحَرَفٌ كَمَزَاجِ النَّاسِ فِيهَا اتَّحَرَفَا^(١)

في المحصلة النهائية ومن خلال ما ظفرنا به من نصوص شعرية حملت سمات الاغتراب، وشكلت مناحيه المختلفة عند الشاعر الأندلسي ، يمكن القول أن المكان كان له الأثر الفعال في اظهار تلك السمات، وتشكيل هاتيك المناحي. وهذه السمات والأشكال إن اختفت عند بعض الشعراء خلف الأحداث أو الأشخاص أو العاهات، فلم يكن للمكان الدور الأول مما قد يظن لأول الأمر؛ فإنه - أي المكان - بقي الملوح المهم الذي كشف لنا تلك الأحداث وشخصها، ومن خلال النصوص قادنا المكان لمعرفة مشاعر الشاعر المغترب تجاه عِلته وأحداث عصره وأشخاصه. فالمكان هو المحور الأساس الذي يكشف لنا عن كل شيء وفي أي وقت.

(١) البسطي آخر شعراء الأندلس : ص ٦٩، ديوان القيسي: ص ٤٦٨.

المبحث الثاني : الغربة والحنين.

إن الاحساس بفقد المكان احساس عميق ينبثق من صميم وجدان المرء، وعواطفه . ولا سيما (إذا كان المكان هو وطن الألفة والانتماء الذي يمثل حالة الارتباط المبدئي المشيمي برحم الأرض - الأم ، ويرتبط بهناء الطفولة وصبابات الصبا. ويزداد هذا الحس شحداً إذا ما تعرض المكان للفقد أو الضياع ، وأكثر ما يشحذ هذا الحس هو الكتابة عن الوطن في المنفى)^(١). وكيف لا يشحذ الذهن مثل هذا الموضوع الغربة؟ بل. وكيف لا يستولي المكان على اهتمامات الإنسان الكثير؟ فإذا ما فقدته فقد تلك الاهتمامات جميعاً.

والشعراء - كباقي الخلق - حينما يغادرون أوطانهم إنما يغادرون فيها ذكرياتهم ، وملاعب صباهم، وميدان أدبهم، فإنهم لابد من أن يحنوا إلى نخلة رمزت قصة حبهم، أو لوادٍ حكى أثر محبوبتهم ، أو لسفح أو لجبل أو لمدينة. فالمكان بمظاهره المختلفة يبقى الهاجس الحقيقي الذي يثير فينا مشاعر الحنين ، بعد أن يشير مشاعر الغربة.

والغربة والحنين موضوعان متلازمان في كل شيء فكراً وأدباً وشعوراً. فالإنسان ما أن يحس بغربته، ويشعر بتغير مكانه، حتى يبدأ حنينه الجارف لمكانه ومنزله الأول، الذي ضاع منه فشكا ذلك الضياع طويلاً، وبكاه غريباً. وعلى الرغم من هذا التمازج بين الموضوعين إلا أننا سنتحدث عن كل واحد منهما على حدة ، كاشفين عن عوامل الغربة، ومن مظاهر الحنين عند الشاعر الأندلسي بحسب المادة الشعرية التي عثرنا عليها والتي نظن أنها كافية لكشف تلك العوامل والمظاهر وبيان أثرها عند المتلقي ، بعد أن أثرت في فكر منشئها وشعره.

أ - الغربة. الغربة موضوع واسع في الفكر الإسلامي الحنيف، فقد أشار علماؤنا وسلفنا الصالح (رحمهم الله تعالى) عن معاني الغربة وأنواعها في مشاعر الإنسان المسلم، وتناولوها بالشرح والتقسيم معتمدين على غربة المسلمين، ولاسيما أهل الصلاح والتقوى وهم ينشرون آيات الإسلام بين أهل الأرض. أو غربة أهل العلم والفضيلة وهم يعيشون بين جاهلين وجاحدين^(٢). وفي كل هذا اعتمد أولئك وغيرهم على

(١) جماليات المكان: (اعتدال)، ص ٥١.

(٢) ينظر: منازل السائرين : أبو إسماعيل الهروي (ت ٤٨١هـ) ، بتحقيق الأب سي. دي لوجيه الدومنيكي، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ٨٨/٣. غربة الإسلام: ابن رجب الحنبلي (ت ٥٧١هـ) . تحقيق -

ما جاء في حديثه - عليه الصلاة والسلام -: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس)^(١).

ولم تكن أنواع هذه الغربة هي التي عرقت فقط، فالأدب - الشعر والنثر - عرف أنواعاً أخرى للغربة؛ كانت منصبة على واقع حياة الأديب وانتاجه، فكشفت لنا حياتهم أنواعاً للغربة كغربة الحياة^(٢) وغربة الذات^(٣)، وغربة الشيب وكبر السن^(٤)، وغربة الحب والبعد عن الحبيبة^(٥).

وفي أنواع الغربة التي قدمنا فيها القول - الدينية والأدبية - لم يكن اتمكان بمنأى عن كثير من الأنواع، وهو قد يتداخل ولو بشكل غير مباشر مع أنواع أخرى لاسيما التي تتعلق بالمجتمع وتقاليده الصارمة التي تفرض أنواع القيود لا يخرج منها الانسان طيلة حياته، فيبقى غريباً وهو في وطنه. ورحم الله التوحيدي (ت ١٤٠٤هـ) الذي قال في هكذا شخص (أغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه)^(٦).

ومن خلال رصدنا لظاهرة الغربة في الشعر الأندلسي - مدة دراستنا - رأينا أن نحاور غربة الشاعر الأندلسي - المكانية - وأن نفك رموزها ومدلولاتها على وفق الفقرات الآتية:

١ - غربة الوطن المعاش.

-أحمد المبراسي، مصر، ط١، ١٩٤٥، مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية (ت ٧٩٥هـ) تحقيق: محمد حسان الفقي الحنيلي، القاهرة، ١٩٥٦، ٣/١٩٤-٢٠١.

(١) صحيح مسلم (ت ٢٦١هـ) : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، دمشق . ١٩٥٥ : ١٣٠/١.

(٢) كغربة الشاعر امرئ القيس عندما قتل والده حجر، وتركه في ضياع حتى وفاته ولم يأخذ بفارده . يعيش مملكة كندة.

(٣) كغربة أبي العلاء المعري في بغداد، ورجوعه إلى دمشق ولم يحقق شيئاً مما كان يطمح إليه.

(٤) كغربة زهير بن أبي سلمى ، وهو واضح في معلقته:

سَمِئْتُ تَكَايِفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ ثَمَاتِينَ حَوْلًا لَا أَبَاكَ يَسَامُ

ديوانه: صناعة : الا علم السنمري ، تحقيق : د. فخر الدين قباوة ، منشورات دار الافاق الجديدة - بيروت، ط٣، ١٩٨٠، ص٢٥.

(٥) منها تجربة شعراء الغزل المعري، ومدى الصدق في تلك التجربة واقعاً وأدباً . ينظر : الغربة المكانية : ص٣٧.

(٦) الاشارات الإلهية: تحقيق د. وداد القاضي ، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣، ص٨١، وانظر : ص ١١٠.

٢ - غربة الشاعر الراحل عن بلده.

٣ - الغربة السياسية.

٤ - الغربة النفسية.

١. **غربة الوطن المعاش**. بدءاً يمكن القول أن قصائد الغربة (تَشْتَرِكُ بخصوصية واحدة ، هي أنها تعبير صادق عن الهموم الذاتية للإنسان)^(١). واتكالا على هذه المقولة، فإن الأبيات والقصائد التي نوردتها نأمل فيها بياناً واضحاً لتلك الهموم، بغية الكشف عن مفهوم الصدق الفني في النص الشعري ، بعد معرفة كوامن الصدق الذاتي - الشعوري - عند صاحب النص.

ابن حمديس الذي عانى الغربة كثيراً في أشعاره^(٢). نقف معه ليصور لنا مدى غربة الوطن المعاش. ونقصد بهذا الوطن الأندلس التي هاجر إليها بعد سقوط مدينته صقلية. فمن الغربة وشكواها التي ألحت عليه، وتركته في هم وسهر طويل يقول وقد حرص أهل بلده على الجهاد، ويحثهم على التمسك بموطنهم ويحذرهم من أن يجربوا غربة المكان:

فإن بلاد الناس ليست ببلادكم	ولا جاراتها والخلم كالجبار والخلم
أعن أرضكم يغنيكم أرض غيركم	وكم خالة جداء لم تغن عن أم
أخلي الذي ودي بود وصلتته	لدي كما نيط الولي إلى الوسمي
تقيد من القطر العزيز بموطن	ومت عند ربع من ربوعك أو رسم
وإيتاك يوماً أن تجرب غربة	فلن يستجيز العقل تجربة السم ^(٣)

إن الألفاظ المشددة التي شاعت في الأبيات تركت ضربات موسيقية عالية نتيجة الأزمة والتشنج اللذين يعاني منهما صاحب النص. فيلاحظ القارئ تفاوتاً في حدة الصوت ، ومن ثم فارقاً في تشكيل الصورة والمبالغة في الإيحاء على أثر ما تركه اللفظة المشددة في البيت الشعري، فمثل هذه الألفاظ (تمتلك القدرة على أحداث متراليات صوتية تنهض

(١) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي : ص ٥٦.

(٢) يلظر: ابن حمديس في المهجر: محمد مجيد السعيد، مجلة كلية الآداب - البصرة، ٧٤، سنة ١٩٧٢، ص ١٢٦.

(٣) ديوانه ص ١٧٤.

لاثرء المفردة ، لاختراق قانون اللغة العادية نتيجة الفارق الذي يترك بصماته على جو القصيدة العام^(١).

وفي نص آخر لا يكتفي ابن حمديس بالنصح والارشاد ، بل؛ نراه يقف على الاطلال ويكي الدوارس. فقد أصبح المكان عنده سارقاً لماضيه الجميل، أخذاً به نحو كل ما يبكي ويؤلم ، هاك وقوله:

وَهُوَ الْحَمِي سَقِيّاً لِأَيَّامِ الْحَمِي مَالِكٌ لَا تَبْكِي بِكَاءٍ بِالْأَسَى
فَانْهَآ وَلَّتْ وَلَمَّا تَرْجِعْ بَيْنَ رَسُولٍ وَبِوَالِي أَرْبَعِ
وَأَدْمَعِ بَيْنَ الْجَفُونِ حُومٍ وَأَدْمَعِ عَلَى الْخُدُودِ وَقَعِ
وَزَفَرَةٍ مُوصُولَةٍ بِزَفَرَةٍ تَصْعَدُ عَنْ نَارِ حَشَى مَذْعِ

وما زال المكان يثير في ابن حمديس مشاعر الغربة ويهيج اللوعة، فيبكي شجناً، ويتوجع واجداً:

وَقَفْتُ فِي الدَّارِ بَعِينَ لَا تَرَى تَغَيَّرَ الرَّبْعِ وَأَذْنُ لَا تَعْيِي
وَلَوْعَةٍ بِالشَّوْقِ غَيْرِ لَوْعَتِي وَأَضْلَعُ فِي الْوَجْدِ غَيْرِ أَضْلَعِي
وَإِنَّمَا يَبْكِي بِكَائِي شَجْنًا وَوَجَعٌ يَعْرِفُ فِيهِ وَجَعِي
لَوْ انْطَقَ الْمَرْبِعُ وَهُوَ أَخْرَسُ تَضَرَّعٌ ، انْطَقَهُ تَضَرَّعِي^(٢)

وعند ابن الزقاق نرى معاني الغربة هنا وهناك في اشعاره ، على أننا ربما لا نعلم كثيراً عن أسبابها، وخفاياها، إلا أننا نحس بغربة صادقة وواقع مرفوض من خلال شعره. فمن طريق ربط غربة سيدنا يعقوب (عليه السلام) لفقده سيدنا يوسف (عليه السلام) . ومنها ابيضت عيناه من الحزن يصور لنا ابن الزقاق غربته في أبيات لم تقرأ من حسن، ولم تجانب الدقة في الوصف والتشبيه يقول:

لِي سَكَنٌ شَطَطٌ بِهِ غَرِبَةٌ جَادَتْ لَهَا عَيْنَايَ بِالْمَزْنِ
مَا حَسَنَ الصَّبْحِ وَلَا رَاقَتِي بِيَاضٌ مُذْ بَانَ فِي الظُّعْنِ

(١) النظرية التوليدية ومناهج البحث عند جومسكي د. عبد السلام المسدي. مجلة الفكر المعاصر، ع٤، سنة ١٩٧٨، ص٣١.

(٢) ديوانه: ص ٣٠٠، ينظر: ص ٥٣٨.

كأنما الصبح لنا بعدهُ عَيْنٌ قد أبَيضَتْ مِنَ الحُزْنِ^(١)

وأما عن عصر الموحدين فإن غربة الموطن في هذا العصر صدرت عن أشعار (اتسمت بالصدق ورهافة الاحساس)^(٢). هذا إلى جانب الثراء في العواطف الذاتية نحو المكان. ومن ثم تراكم هذه النصوص بكم هائل من الصور الابداعية التي أصبحت تشكل شيئا مألوفا بين أشعار الغربة، على مثل قول ابن صاحب الصلاة (٥٣٧هـ)^(٣) وهو يشد الرحال عن داره بعد أن أقعده الدهر، وألزمه المكان بما لا يليق به، على أن في الأرض متسعا إن قل المتسع وبين الناس صحب إن جفى أصحابه :

سارحاً عن دارٍ نبتَ بي ولم يَقمُ بها أحدٌ بي حينَ أقعدني الدهرُ
ففي الناسِ صعبٌ إن جفاني صاحبٌ وفي الأرضِ قطرٌ حافلٌ إن نبا قطرُ
ألم تَرَ أنَّ الماءَ بالجري لَزِقُ وبالمكثِ في مستنقعِ الماءِ مصفرُ
ورحلةُ أهلِ الفضلِ عن أهلِ بلدةٍ شهيدٌ بنقصِ فيهمِ ولها خُسْرُ
وشَرُّ بلادِ الله ما لم يكنِ بها معينٌ على أن لا يستقرَّ بها الحرُ^(٤)

ويبدو أن الشاعر ابا الحسن الفضلي (ت ٦٢٧هـ)^(٥)، سأم المقام بغرناطة وتسى أن يعود إلى اشبيلية موطن أباه وأجداده، وهو بذلك لا ينكر حسن غرناطة وأعجابه بها: سئمتُ المقامَ بغرناطةٍ وألسنُ حالي بهذا تنطقُ
وما أنكرتُ حسنَها مقلتي ولكنَّها غيرَها تعشَقُ^(٦)

وعلى الرغم من أن عصر بني الأحمر شهد تغيرات كثيرة وتطورات هائلة في أمور الدولة وعلاقتها الخارجية التي بات العدو النصراني منها قاب قوسين أو أدنى.

(١) ديوانه: ص ٢٧١، وينظر: ص ٢٧٦.

(٢) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: ص ١٠١.

(٣) هو ابو محمد عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فتوح الحضرمي. اللخوي المعروف بعبود بن ابن صاحب الصلاة. يلنسي رحل إلى شاطبة. انظر: تحفة القادم: ص ٩٠، المقتضب من تحفة القادم: ص ٦٨.

(٤) تحفة القادم: ص ٩٢.

(٥) ترجمته في: زاد المسافر: ص ١٠٦، اختصار القدح المعلى: ص ١٠٨. المغرب ١/ ٢٠٠٦.

(٦) زاد المسافر: ص ١٠٦. اختصار القدح المعلى: ص ١٠٩. المغرب ٢/ ٢٨٧.

وشروع الفتن الداخلية، وفشل النظام الحاكم في القضاء على أغلبها ، وإن تم له القضاء على بعضها فكان بمساعدة قوى خارجية جاءت من بلاد المغرب وأهله، أقول: على الرغم من ذلك كله فإننا بأزاء مواقف مختلفة بدرت عن الشعراء في هذي المدة. فأبو حيان مثلاً أثر الرحيل صغيراً^(١)، في حين أن ابن خاتمة يرى أن ما يلزم المرء مكانه وأن يصبر على ابتلاء الله سبحانه، فربما أراد له الخير على كثرة المحن والمصاعب التي قد تدور حوله (وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ)^(٢)؛ يقول:

الزَّمْ مَكَانَكَ فَالتَّغْرِبُ ذَلَّةٌ لو لم تَلْ غَيْرَ الْقَرَارِ نَجَاحًا
فإِذَا أَرَادَ اللَّهُ مُهْلِكَ نَمْلَةً هِيَ أَلْهَا كَيْمًا تَطِيرُ جَنَاحًا^(٣)

وربما لا نرى في البيت الثاني غير صورة بسيطة ساذجة، إلا أنها لا تخلو من إيمان، بقدر لا يسر، يفرضه واقع محمل بما سر ومحفوف بمكاره. أما البلفيقي ، فيقول في وطنه المعاش، قد فقد الأهل والأحبة، وأفرغ عليه حزنًا ودمعًا، بما يليق بهذا الفقد، فلم يبق لديه ما يفقده:

قَالُوا: تَغْرِبْتَ عَنْ أَهْلِ وَعَيْنِ وَطْنٍ فقلت: لِمَ يَبْقَى لِي أَهْلٌ وَلَا وَطْنُ
مَضَى الْأَحْبَةُ وَالْأَهْلُونَ كُلُّهُمْ وَلَيْسَ بَعْدَهُمْ سَكْنَى وَلَا سَكْنُ
أَفْرَغْتُ حَزَنِي وَدَمْعِي بَعْدَهُمْ فَأَنَا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَا دَمْعٌ وَلَا حَزْنُ^(٤)

فلم التغرب من جديد بعد كل هذا الترح والأسى ؟ ولم اللجؤ إلى مكان جديد؟ أو لا يثير فينا هذا المكان احساساً بما مضى، ومشاعراً بما فقدنا؟!

ولم تكن معاني ابن خاتمة ومعاني البلفيقي عن معاني ابن الخطيب ببعيد. فهو الآخر — على طول غربته — وتجاوفي أهليه المخلصين، من أصحاب الثقافات والفكر ووقوع ما وقع منهم. والظامة الكبرى أن تصدر مثل هذه الأفعال من تلك الشخصيات ، يظل ابن الخطيب ينصح بعدم ترك المكان الذي يقيم فيه الإنسان ، وأن يبقى المرء —

(١) ديوانه: مقدمة المحققين : ص ١٢.

(٢) سورة البقرة: بعض الآية ٢١٦.

(٣) ديوانه: ص ١٣.

(٤) شعره: ص ٨٠.

أيا كان — يفكر أنه سينتقل إلى دار التراب ، وإن الله سبحانه — سيحاربه على غربته. وتتكيل المكان به خيراً وحسناً، ما بقي صابراً محتسباً، هاك قوله:

إذا فُكِرْتُ في وطنٍ كريمٍ نبت بك عنه نائفةً أغترابٍ
وعوضك الزمان بشراً دارٍ وسكني منزل وحش الجنابِ
فأبد بما انتقلت له اغتباطاً وفكر في انتقالك للتراب^(١)

وفي أشعار ابن الخطيب ميدان واسع لأثار الغربة والحنين إلى أيام الصبا. وسأ كان له في غرناطة ، وفي كل تلك الآثار نرى الشاعر يشكو من مكانه الجديد في تلمسان أو في المغرب عموماً. وهو إذ يسلي نفسه بذكر الريح، والنظر إلى جداول الماء، والتقليل من الشكوى غير النافعة ، فإن هذه الأمور كلها لا تخلو من دلالات خفية لمشاعر أخرى لا نراها غير الألم وفرط الحنين . وسأم العيش يقول:

هات الحديث عن الركب الذي باناً هل جاوز الشعب أم هن يمم الباناء؟
أحببنا أن نأت يوماً دياركم عنا فما زلتكم بالقلب سكاناً
إذا دعنا إلى السلوان بعدكم نفوسنا ، قامت الأشواق تنهاتنا
في ذمة الله أحببنا لنا ارتحلوا دانوا محبتهم مثل الذي داننا
فإن شكونا إليهم ما نكابدُهُ شكوا من البعد عنا مثل مسكونا^(٢)

هذه مقدمة إحدى قصائده التي تذكرنا بأهله ، وتشعرنا بشكواه الدائمة، أن آثار الماصي المنذر لا تزال نصب عين الشاعر ، وعل الأفعال الماضية في هذا الحز من النص خير دليل على ما نقول فالأفعال (بان، أت، زال، دعا، قامت، دى. نحى) ما هي إلا الماضي الجميل بكل ما فيه: اهلا، ومحبة ، ومكانا. وإن مجيء النص — كاملاً — على بحر البسيط ساعد على بعث الأشواق ، ورسم صور الذكر فهو بحر (شديد الصلاحية للتعبير عن معاني العنف والتعبير عن معاني الرقة)^(٣). فمن جانب العنف. فلا أدل على مأساته ومحنته ومقتله، ومن جانب الرقة فهو ما تركه لنا من أشعار مثل هذا النص —

(١) ديوانه: ص ٣٠٢.

(٢) م.ن: ص ٥٩٦.

(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها: د. عبد الله الطيب المجذوب، دار الفكر — بيروت . ط ٢.

١٩٧٠، ٣٢٣/١.

تذكرنا به وبمكانه - المفقود والمعاش ، لكونها يمثلان الشخصية الإنسانية لابن الخطيب، ويحكيان مشاعره بلا زيف أو خطل.

٢ - غربة الشاعر الراحل عن بلده. ما أكثر الظروف التي تجبر الإنسان على مغادرة وطنه وهجره. وربما تكمن الصعوبات الحقيقية، وتظهر العقبات الخفية عندما لا يجد المرء مكانا يحل فيه ، فتزيده الغربة ألما ومره.

والشاعر الأندلسي - بغض النظر عن كل شيء - اضطر إلى مغادرة دياره، ومدينته، وما نقصده بهذه المغادرة أنه ترك بلاد الأندلس كليا وما عاد إليها فتوحه نحو بلاد إفريقيا كالسودان أو مصر، أو اتجه لبلاد المشرق كالعراق أو الشام أو الجزائر. وعلى أي كانت وجهته التي هو موليتها، كيف كانت الأندلس بالنسبة لهؤلاء الشعراء؟ وكيف كانت هواجسهم ومشاعرهم حين يسمعون بها، أو عنها؟؟

ابن جبير الشاعر الرحالة لا يكف في أشعاره عن النزعة الباكية لموطنه وبلاده، فهو لا يزال يتذكر بلده وبيكي لغربته ، وفي هذا التذكر يقول:

غريبٌ تذكّرْ أوطانَه ' فـهَيِّجْ بِـالذِّكْرِ أَشْجَانَه '
يحسُّ جـِـزَاعَ عِـقُودِ العِزَاءِ وَيَعْقِدُ بِـالنَّجْمِ أَجْفَانَه '
ويرسلُ للغربِ مِـنْ دَمْعِه غُرُوباً لَتَسْقِي سَكَاثَه (١)

وهو إذا ما زار دمشق تذكر أختها في الأندلس (غرناطة) (١). ففاضل بينهما فوجد الأخيرة أقرب لنفسه، وأحب لهواه فراح يودعها ميزات فاقت المدينة المشرقية وتغلبت عليها:

يا دمشقَ الغربِ هاتيكِ لقسد زدتِ عليّ منيها
تحتكِ الأنهارُ تجري وهي تنصبُّ إليّ منيها (٢)

هذه كانت من جملة مشاعر ابن جبير نحو وطنه، الذي رحل عنه، وزار بلداناً عدة غيره . إنه لا يجزع من البكاء عليه، ومن إرسال السلام لأهله. وبغاضته على

(١) شعر ابن جبير : ص ٩٧.

(٢) تعرف غرناطة بدمشق الأندلس. ينظر: المغرب : ١٠٢/٢ ، صبح الأعشى: ١١٤/٥. فتح الخريب:

١١٧/١ ، ١٤٧، ١٤٧، ١٧٦، ٢٠١، ٢١٧، ٢١٨.

(٣) شعر ابن جبير : ص ١٠٦.

سواء من الأمكنة. على أن تلك المفاضلة بين الشرق والغرب لم تستقر في عواطف ابن جبير، ولم يكفه أنه الغرب مسقط رأسه، وحكايات ذكرياته فقد كان المشرق بالنسبة إليه المأوى الذي آواه بعد ضياع، والحافظ لعلمه وأدبه بعد شتات، فأثره على الغرب، راسماً لأثيره بطلوع الشمس وغروبها، بصورة بصرية عرضها ابن جبير، مستغلاً صورة الشروق الصافية، وصورة الغروب المظلمة علماً أنه لم ينس أن هذه الصورة باقية سرمدية لان شروق الشمس من مغربها يعني زوال الشرق والغرب، ونهاية ابن جبير، بل؛ ونهاية الكون البشري بأسره، يقول:

لا يستوي شرق البلاد وغربها الشرق حاز الفضل باستحقاق
انظر لحال الشمس عند طلوعها زهراء تصحب بهجة الاشراق
وانظر لها عند الغروب كنيبة صفراء تعقب ظلمة الآفاق
وكفى بيوم طلوعها من غربها أن تؤذن الدنيا هوشك فراق^(١)

إن بناء الصورة على هذي العلائق بين الشرق والغرب، وبين شروق الشمس وغروبها ربما بدت واضحة عند الكثيرين من الشعراء الأندلسيين الذين رحلوا عن بلدهم أو الذين عاشوا في زمن الفتن في البلاد الأندلسية، وتمنوا لو أنهم ولدوا في بغداد أو دمشق فحفظت لهم مكانتهم، وأخذت عنهم العلوم والآداب، وفي مثل هذا كان من حق ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) الفقيه الأديب أن يقول:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعني الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكري النهب^(٢)

فالمكان الذي ولدنا فيه، ونعمنا بأجوائه وطبيعته، لا يشترط فيه أن يبقى مأنوسا يبحث فينا الأمل، ويثير فينا السعادة، فلربما انقلب إلى تعس ونحس، وهنا لا نجد أنفسنا إلا وقد تعلقنا بغيره، وأصبحت تناشده لتحيا فيه بحرية ونعيم، مهما كان بعيداً أو مستحيلاً!

(١) شعر ابن جبير : ص ٧٣، وينظر: ديوان ابن خاتمة: ص ٢٠٦.

(٢) شعر ابن حزم : جمع وتحقيق: عبد العزيز إبراهيم، مجلة المورد، مج ٢٦، ٢٤، ١٩٩٨، ص ١٠١.

إن المواقف الإنسانية التي عبر عنها أبو العباس اليناشتي (ت ٦٣٥هـ)^(١)، في غربته عن مدينته بليونش^(٢)، هي مواقف مشهودة لوفاء أهل الأندلس لملكهم ولاهليهم . وهي مشاعر نبيلة تلك التي تبقي المودة، وتصون العهد، وتحفظ الجليل . فهو إذا ما ابتدأ قصيدته ابتداءً بالتذكر ومن ثم الصبر على هذه الذكرى التي لا تثير إلا حزنه، ولا تشعر إلا ألماً . يقول:

تذكرتُ من بغدادٍ أقصَى المغاربِ فجالَ نجيَّ الفكرِ بينَ السَّرائِرِ
فصيرتُها نفساً تكادُ من الأسَى تسرَّب ما بينَ الدُموعِ السَّوارِبِ
وقلتُ لئن كابدتُ ترحه راحلٍ فسوفَ يريكَ اللهَ فرحةً أيَّسِرِ
فلا تياسِ من بعدِ قصَّةِ يوسفَ ولو كنتَ قد جاوزتَ سدَّ مُسَرِّبِ^(٣)

لقد استوحى الشعراء الأندلسيون من قصة سيدنا يوسف — عليه السلام — معاني عدة^(٤)، ورسموا من خلال ما تعرضوا له — من شظف ونأي وشدة — ما تعرض له النبي الكريم، ومن هذه المعاني الغربة التي رآها أبو العباس اليناشتي ما يعبر بصديق عن حاله بعيداً عن أهله، وما يتفاعل به لقرب العودة، ودنو الفرج . وفي إطار المفاضلة لا يقدم أبو العباس مدينةً على مدينته . لا جمالا على جمالها، ولا روضا على رياضها، وهو قد طاف البلاد — شرقها وغربها — فلم يذكر إلا موطنه . يقول:

أبليونشُ لا جاتبتَ روضك الصبا وجادَ عليَّ مغناك صوبَ السَّحَابِ
فما شعبُ بَتَّانٍ ولا الغوطَةُ التي زَهتَ برياضِ بينَها ومذاتِ
باحسنَ من مرآكٍ والبحرُ مُعرضُ وقد جالَ فيه الطرفُ من كُلِّ جَانِبِ

(١) حينما خلع أهل سبتة طاعة الموحدين سنة (٦٣٠هـ) ، قدموا عليهم أبو العباس ، فلما عادوا للخدمة ، قبضوا عليه . ينظر : البيان المغرب ٣٢٨/٣ — ٣٤٠ .

(٢) بليونش : قرية كبيرة من قرى سبتة .. ينظر : الروض المصطلي : ص ١٠٣ .

(٣) م . ن : ص ١٠٣ .

(٤) ينظر : القصص القرآني في الشعر الأندلسي : ص ١٣٨-١٤٢ ، أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي :

د . محمد شهاب الحاني — بغداد ، ٢٠٠٢ ، ص ١٠٨-١١٨ .

لقد طفتُ في شرقِ البلادِ وغربِها فجانبَ طرفي غيرَ تلكَ الجوانبِ^(١)

وحتماً، أن يكون الخلان والأهل، كراما حسان الوجوه، طيبين المعشر. فلا ينهي أبو العباس أبياته إلا بهم، باعثاً سلاماً عاطراً ما بقي حياً، متمنياً أن لا تطول يد الزمان لتأخذه دون رجعة إلى مكانه. إلى منصبه. إلى أهله.

إذا ما بقينا في عصر الموحدين، ستلقانا تجربة أخرى لشاعر أندلسي عاني التغرب والرحيل عن بلده، ولكنه ظل يُعرف به وينسب إليه، تلك هي تجربة ابن سعيد الأندلسي، الأديب المؤرخ المعروف، لقد أدار ابن سعيد معاني غربته في الكثير من أبياته وقصائده. ورأينا في الفصل الأول^(٢). أن أثر البيئة الأندلسية بقيت عالقة في ذهن شاعرنا فراح ينظم في الأزهار والثمار، مستوحياً صوره من خزين ذاكرته في موطنه الأول - الأندلس -.

لقد كان ابن سعيد (الرحالة الطرفة الاخباري العجيبة الشأن في التجول في الأقطار ومداخلة الأعيان والتمتع بالخزائن العلمية وتقيد الفوائد المشرقية والمغربية)^(٣). وعلى الرغم من كل تلك البلاد التي زارها وتقل فيها إلا أن الأندلس ومدنها لم تغيب عن باله وفكره وشعره. فهو إذا ما رأى نيل مصر وأزنه بنيل حمص (أشبيلية):

يا نيل مصر أين حمص ونهرها حيث المناظر أنجم تلتاح
في كل شط للنواظر مسرّح تدعوا إليه منازح وبطاح
وإذا سبحت فلسفت أسبح خائفاً ما فيه تيار ولا تمساح^(٤)

وفي معظم قصائده نلاحظ شوقاً عارماً لبلاد الأندلس لحمص، لوادي الطلح^(٥)، للجزيرة الخضراء^(٦) وعلم ما زاد في هذه الغربة ألماً ووحشة ما لاقاه ابن سعيد -

(١) الروض المعطار ص ١٠٣. والغوطة هي قصبة في دمشق، أو موضع متصل بها. ينظر: د. ن: ص ٤٣.

(٢) ينظر ص ٦٠، من الفصل الأول من هذه الدراسة.

(٣) نفع الطيب: ٢٧٠/٢ - ٢٧١.

(٤) م. ن: ٣٠٦/٢.

(٥) (شرق أشبيلية، ملتقى الأشجار، كثير مترنم الأطياف)، نفع الطيب: ٢٨٥/٢، الشعر: ٢٨٦/٢ - ٢٨٨.

(٦) مدينة مشهورة بالأندلس، متصلة بأعمال شذونة.. ينظر: معجم البلدان: ١٣٦/٢، الروض المعطار:

ص ٢٢٣، الشعر: في نفع الطيب، ٣٠٨/٢، وفي قوله يتشوق إلى غرناطة: م. ن: ٢٨٣/٢ - ٢٨٥.

وهو الاديب ابن العائلة المشهورة بالعلم والادب — من جفوة الجوار . وضيق أخلاق الرجال الذين حل بينهم. هاك أبياته في مصر . وقد ساقته به الأقدار ، وتركته في تيه وحسرة ، وشكوى غريب ضاعت حقوقه بلا عدل :

أصبحتُ اعترضُ الوجوهَ ولا أرى ما بينهما وجهاً لمن أدريه
عودي على بدني ضللاً بينهم حتى كأنني من بقايا التيه
ويح الغريب توحشتُ الحاظه في عالم ليسوا له بشبيه
إن عاد لي وطني اعترفتُ بحقه إن التغرب ضاع عمري فيه^(١)

وفي ارتباط بين الزمان والمكان — وما أكثر ما يرتبطان — بل . لا يفترقان . يطول ليل ابن سعيد وأمثاله ويتمنى أن ينقشع بصبح منير ، أن يتبدد الظلام بعودة إلى الوطن ، أن يزول الترح بفرح عميق . أن ينقضي يوم الفراق ليعود الشمل ويجتمع الأحباب ، يقول :

أيها الليل لا تؤمل خلوداً عن قريب يمحو ظلامك ماح
ويلوح الصباح مشرق نور فيه المستهام بسدء نجاح
إن يوم الفراق بسد شملتي طائراً ليت به بغسير جناح
حالك اللون فيه لونك فأغرب عن عياني يا شبه طير انتزاح
وإذا ما بدا الصباح فما يشبهه إلا لون الخدود الملاح^(٢)

إنه أمل يعتلي النفس الإنسانية وطموح يراود هواجسنا عندما نفقد أماكننا التي ولدنا فيها ، عندما نتعرض — قسراً — لترك أهلينا ، عندما نكون أحياء أسوانا في قفوت واحد ، عندما نبكي لذل الفراق ونتوجع لطول الاشتياق . في أبيات لابن سعيد حكما على لسان والده يبصرنا بكل هذه المشاعر يقول :

أودعك الرحمن في غريتك مرتقباً رحماً في أوبتـك
وما اختياري كان طوع النوى لكنني أجري على بغيتـك

(١) نفع الطيب : ٢٦٢/٢ .

(٢) م.ن : ٣٠٣/٣ .

فَلَا تُطْلُ حَبْلُ النُّوَى أَنَّنِي وَاللَّهُ، اشْتَاقُ إِلَى طَلْعَتِكَ^(١)

إنها شكوى الحال. عرف ابن سعيد كيف يجعلها مؤثرة ميكية، فأدارها على لسان والده، فعمقت فينا عواطف الأبوة الصادقة لاسيما وأنها قيلت عن بعد ونأي. وفي عصر بني الأحمر، حيث كثرت الحروب وكانت الظروف السياسية مضطربة، وشهد أغلب الشعراء سقوط مدنهم بيد الأعداء. اضطرب الشعراء إلى ترك بلادهم والرحيل عنها. إلا أن الشعراء الراحلين لم يكونوا ليعرفوا فضل أوطانهم. ومكانتهم إلا بغربة ممقوتة، وجيرة مرفوضة، فراحوا يذكرون أوطانهم ويبكون شوقا إليها، وحنينا لأهلها. أبو حيان الذي مر بغربة الجوار وغربة العلم. ما كانت فرقته إلا أس، وما كان في مصر - البلد الذي حل فيه - إلا جسدا خاويا، أما روحه فبقيت في الأندلس، هناك موطنه الأول الذي ولد فيه. وأحبه، وغادره على استكراه. يقول:

يا فرقةً أبدلتني بالسرور أسى وأسهرت ناظراً قد طالما نعى
أنى يكون اجتماع بين مفرق جسم بمصر وروح حل أندلسا^(٢)

وأمام هذي الغربة المكانية، وما تبدل فيها من اهتمام بعلمه، وما أفقدته من مكانته بين الخلق، ما كان منه إلا النظرة الزهدية لهذه الحياة، بعد أن فقد مهنته رابته. ربقي عرضة لتدابير القدر يصرفه بين كفيه أنى شاء وهو راضٍ محتسب. لتأمل قوله. متذكرين آهاته ومصاعبه:

أعاذلُ ذرني وانفرادي عن الوري فلسْتُ أرى فيهم صديقاً مصافيا
ندماي كتب استفيد علومها أحبائي تغني عن لقائي الأعدايا
وأنسها القرآن فهو الذي به نجاتي إذا فكرت أو كنت تأليا
لقد جلت في غرب البلاد وشرقها أنقبت عن كان الله داعيا
فلم أر إلا طالبا لرياسة وجماع أموال وشيخاً مرثيا
قبضت يدي عنهم وأثرت عزلة عن الناس واستغنيت بالله كافيا^(٣)

(١) نفح الطيب: ٣٠٨/٢.

(٢) ديوانه: ص ٢٢٤.

(٣) ديوانه: ص ٤٨٩-٤٩٠.

لقد أحسّ أبو حيان بالانقطاع والحيرة في هذا العالم المادي، فُلجأ إلى الله - سبحانه وتعالى - كنوع من المثالية التي تترفع عن كل ما هو مادي. إنه يصف غربته من خلال يأسه بموازنته بالإنسان المسلم ولهفه وراء الجاه والسلطة والسال فيفقد كل شيء فيتمنى لو يبقى هانماً في عالم من البراءة والصفاء.. وحيداً منعزلاً.

إن المكان بتداعياته الجديدة هو الذي فرض مثل هذا التشاؤم، وهذه النظرة العدائية للناس. إنه - أي المكان - يحدد صراع الذات مع الآخرين، ويحدد مسارها ويملي عليها ما لم يكن بحسبانها - سلبي وإيجاباً -.

وقبل أن نطوي هذي الصفحة من أنواع الغربة في الشعر الأندلسي، نود أن نشير إلى أن أغلب النصوص الشعرية^(١) التي قيلت في عصر بني الأحمر ركزت على عنصرَي الرحيل والوداع، وفيهما سخر الشاعر الأندلسي إمكاناته التعبيرية في سبيل وصف تلك الصدمة العنيفة تجاه من يحب ومن يريد، تلك الصدمة التي ما تزال توقد فينا جذوة المشاعر الإنسانية، وتضفي عليها عوامل الحرمان والفقد والبكاء. فتنتج شعراً يتشح بالمرارة، ويتسم بالصدق وعمق التأثير.

٣. الغربة السياسية. نشأت هذه الغربة كأحدى إفرازات لعوامل سياسية أهمها، سقوط المدن الأندلسية بيد الأعداء، وما رافق ذلك السقوط من انسيهار الأسر الحاكمة في تلك المدن. أو قد تنشأ لنزاع سياسي ما. وبغض النظر عن هذه العوامل، نظر الشاعر الأندلسي إلى نفسه فوجدها وحيدة ضعيفة أمام محن وفتن. فآثر بعضهم الرحيل، وآثر آخرون الانزواء بعيداً عن القادم الجديد مسلماً نفسه بأوراقه وكلماته. وعلى كل؛ فإن الشعر الذي نرف في هذه الغربة يشكل نسقاً متصاعداً في شدة الشكوى وعظمة الفراق، وصعوبة البلوى، فما عاد لأغلب الشعراء كيانهم الاجتماعي أو السياسي، وذهبت سلطتهم بذهاب ممدوحيه من الأمراء والوزراء والقواد. ولذا بقيت أشعارهم شاهداً صدوقاً ليضعنا أمام واقع اجتماعي مريع، زادت التقلبات السياسية غربة وضياعاً وحرماناً.

في عصر المرابطين، سقطت مدن وزالت حكومات، ونُفي أقوام.. وكان الشاعر الأندلسي المسجل لكل هذا. فابن عبدون حين يرثي بني الأفطس ويكي بخليوس حينما

(١) ينظر: ديوان الخطيب: ص ٥٩٦، ص ٣٢، ص ٣٩٠، الإحاطة: ٣٧١/٢، الكتبة الكامنة: ص ٦٦، ص ١٦١، نثر فرائد الجمان: ص ٢٩٦، نفع الطيب: ٣٠٢/٢، ٢٣١/٦، ٣٠/٧، أزهار الرباض: ٢٥٠.

دخلها المرابطون يأتي في نهاية النص على حاله ، فلا يجدها إلا بين الليالي الطوال ،
والسنن المعطلة ، والمحن الكثيرة ، يقول:

مَنْ لي ، ولا مَنْ ، بِهِمْ إِنَّ أَظْلَمَتْ نَوْبٌ وَلَمْ يَكُنْ لِيْلُهَا يَفْضِي إِلَى سَحَرٍ
مَنْ لي ، ولا مَنْ ، بِهِمْ إِنَّ عَطَلَتْ سَنَنٌ وَأَخْفَيْتِ السَّنُ الْآثَارَ وَالسَّيْرَ
مَنْ لي ، ولا مَنْ ، بِهِمْ إِنَّ أَطْبَقَتْ مِحْنٌ وَلَمْ يَكُنْ وَرْدُهَا يَدْعُو إِلَى صَدْرِ^(١)

إن بناء الأشطر الأولى من الأبيات على وفق المعادلة الآتية:

• أسلوب الاستفهام (للتفخيم والتعظيم) ، ثم الجواب بالنفي مع:

تعاظم الذنوب .
متعطيل السنن .
اطباق المحن .

ما كان ليأتي إلا عن نفس متأزمة غاية التأزم، تعيش في غربة حالكة . وتواجه
مصيراً مجهولاً، ومستقبلاً قلقاً.

وقد وفق ابن عبدون — إلى حد كبير — بجعله هذه الأبيات ضمن خاتمة النص،
لأنها ستترك في نفس السامع وقعاً لا ينسى ، كما أنه يبين مقصده، فلا بد أن يكون
الرائي قد فقد أشخاصاً وسلطة وعيشاً. فيعرج عليهم الشاعر وهو يبكي ما فقده فيهم من
وفاء وشجاعة وكرم.

أما ابن حمديس ، فقد خصص مدينته صقلية بالكثير من القصائد والمقطعات
حتى أطلق عليها د. احسان عباس (الصقليات)^(٢)، وعدّها الباحث نايف خالد الحسن من
مراحل الغربة المهمة في حياة شاعرنا ابن حمديس ، لوفرتها وجودتها الفنية^(٣). كانت
صقلية تتمثل لابن حمديس بكل سبيل، وكل غرض، وتأتي مع أي حديث حتى (أن ليلاليه
الخمرية واحتفالات النشوى مع أخوانه في الحانات والمواخير، واغراقه في الشرب

(١) ديوانه : ص ١٥٠-١٥١.

(٢) ينظر: ديوانه (مقدمة المحقق) : ص ١٧-١٨، العرب في صقلية ، د. احسان عباس . دار المعارف -
مصر ، ١٩٥٩ : ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٣) ينظر : ابن حمديس الصقلي حياته وشعره: (رسالة ماجستير) كلية الآداب في جامعة بغداد. ١٩٧٠،
ص ٧٨-٨١.

واللهو ، لا تنسيه وطنه و تسليه عنه، فتراه وهو يسترسل مع راحه وأنسه وينصت في شبق ونشوة إلى مغنيته التي تشده أعذب الألحان..نراه في هذه الجلسة التي ينس فيها الإنسان همومه ومشاكله وتغيب عنه أشجانه وتبارحه، يتذكر صقلية. فتتلبر صررتيا أمامه فيعصره الأسى ، وتهزه الذكرى ، فيبكي حسرة ولوعة^(١) يقول:

نكـرتُ صـقـليـةً والأـسـى يـهـيـجُ للـتـفـس تـذـكـارُها
ومـنـزلةً للـتـصـابي خـلـت وکـان بنـو الظـرف عـمـارُها
فإن کنت أخرجت من جنـة فباني أـحـسـدت أخبارُها
ولولا ملوحة ماء البکا حـسـبت دـمـوعـي أنـهـارُها^(٢)

نقد كانت نكبة صقلية وسقوطها سنة (٨٤٤هـ) حدثا مأساويا في حياة ابن حمديس ظل يبكيه ويتألم لوقعه ، وزادت عليه غريته - الجبرية - ألامه. وعقت جراحه. ففي رثاء أبيه الذي بعث له كتابا يخصه على البحر ويتشوقه ، ما وجد الابن إلا البكاء، والتلل بالغربة، والتسلي بمساعة الوداع ، وما هذا إلا تحسر في تحسر. ودموع في دموع ، لنسمع قوله:

وما أنسن لا أنسن يوم الفراق وأسـرارُ أعـينـنا فاشـيـه
ومـرت لتوديعـنا سـاعـة بلولـسـو أدمعـنا خـالـيـه
ولي بالوقوف على جمرها وإنضاجـه قـدـم حـافـيـه
ورحـت إلى غـربـة مـرة وراح إلى غـربـة سـاجـية^(٣)

وفي صراخ ابن خفاجة المدوي، ما يبكي العيون ويذمي القلوب. فقد غزاها الشئد الكمبيطور سنة (٩٥٠هـ) وعاث فيها خراباً وتدميراً. وبكاء ابن خفاجة لشئدته ناجم عن تعلقه العميق ببينته التي احبها، وخلدها شعره، وعلّ أبيات الشاعر صدرت عن وعي ومسؤولية تجاه المكان الذي تغلغل في مشاعره . ومن ثم أشعاره. وهنا يطرب لنا أن نناقش الصورة غير الواقعية لشعر ابن خفاجة والتي خرج بها دارس لشعره حين قال (والأغرب.. أن سُقر مدينة الشاعر التي ولد فيها، وله في اطرافها ضياع،

(١) ابن حمديس في المهجر: ص ١٤١، وينظر: العرب في صقلية: ص ٢٥٥.

(٢) ديوانه: ص ١٨٣.

(٣) ديوانه: ص ٥٢٣.

وهي من أعمال بلنسية التي افتتحها المحارب الأسباني (السيد) وحرّق قاضبها وبطش
بسكانها العرب.. والشاعر في عنفوان شبابه.. فلم يعرض لجميع هذه الأحداث في
شعره، ولم يخض غمراتها بسيفه^(١). أقول: إن القطائد التي ورثناها عن ابن خفاجة
وفيها ما فيها من البكاء والحسرة والآلام لتكفيها المؤونة ، وتلزمنا الحجة ، فنكبة بلنسية
لا تأتي على كلمات شاعرنا وأوزانه وقوافيه فحسب، بل؛ (تأتي قطعاً من كبده، ومزعجاً
من قلبه حيث يبثّ همومه ولواعجه)^(٢). يقول:

بين شُقْرِ وملتقى نهريها حيث أَلَقْتُ بنا الأماني عصائنا
ويغني المكاء في شاطئها يستخفُّ النهي فحلّت حباها

على ان هذه الافتتاحية المفعمة بالغناء ، ولذة الحياة، وحركة الطبيعة المرحية
بالأنهار والشواطئ ، لا تدوم واقعاً وأدباً، بل ؛ تأتي علينا الغربة، فتحجبها بالأماني،
وتزينها بالفراق، وتحيطها بالدموع ، يقول:

آه من تجربة ترقق بشاً آه من رحلة تطول نواها
آه من فرقة لغير تلاق آه من دار لا يجيب صداها
لست أدري ومدمع المزن رطباً أبكاها صبا بة أم سقاها^(٣)

إن ابن خفاجة يضعنا في صورتين متناقضتين ، الأولى؛ كانت صورة الطبيعة التي
عرفها وعاش في كنفها بين أطيافها، وتحت ظلالها، وعلسى أشجارها، والصورة
الأخرى؛ ما آلت إليه هذه الصورة من تغير وما شاهده من تبّل . إذ غدت هذه
الطبيعة شوماً، ورسمت ألماً واصبحت واقعاً مرأً. ولذا ينظر إليها ابن خفاجة حين
الحسرة والاعتبار ، بعد أن كانت النظرة إليها مبهجة مفرحة، ولكن دوام الحال من
المحال، فالأرض ليست الأرض، والديار ليست الديار، يقول:

(١) ابن خفاجة الأندلسي: ص ٦٦.

(٢) الأدب الأندلسي: (د. منجد): ص ٣٣٦.

(٣) ديوانه: ص ٣٦٤-٣٦٥.

فإذا تردّد في جنابك ناظرٌ طالَ اعتبارُ فيكِ واستعبارُ
كتبت يدُ الحادثانِ في عرصاتها لا أنتِ أنستِ ولا الديارُ ديارُ^(١)

إنها بلوى ثقيلة عصفت بحياة ابن خفاجة ، وتركته في شجن مؤلم، كيف لا وهو يرى مدينته قد خربت، وطالتها أيدي العابثين ! فالمكان — كما اسلفنا — يكتب هميته وحيويته من الأحداث التي تقع فيه، والأشخاص الذين يتأثرون ويؤثرون فيه تبعاً لتلك الأحداث.

ولم يقتصر أمر الشاعر الأندلسي المغرب سياسياً على مسألة سقوط مدينته أو انهيار حكمها الداخلي، فقد تعرض بعض الشعراء إلى الغربة الجبرية بنفيه من مدينته والزامه السكنى في مدينة أخرى لدوافع سياسية بغیضة. هذا ابن البراق ، أبو القاسم محمد بن علي الهمداني (ت ٥٩٦هـ)^(٢)، أرغمه الأسير ابن سعد بن مردنيش (ت ٥٦٧هـ)^(٣)، على ترك وطنه وادي أش لينتجع مرسية ثم بلنسية على كره وبغض ، وبقي في هذه الأزمة الضيقة إلى موت الأمير ابن سعد فعاد إلى بلده . ولنا في تجربته هذه أبيات نلاحظ فيها مرارة الغربة ووجع الفرقة و(يشيع فيها شيء من النظرات الفلسفية حول الذات وعدمها)^(٤)، هاك قوله:

رثوا القباب بأدمعٍ مفضوضةٍ ذوى الفقراقِ واكبلتِ تتصمّمُ
فللنفس في تلك الربوع حبيبةٌ والقلب في أثر الوداع مُقسّمُ

(١) ديوانه: ص ٣٥٤. وشطر البيت الثاني أخذ من قول أبي تمام :

لا أنتِ أنستِ ولا الديارُ ديارُ خفّ الهوى وتولّت الأوطارُ

ديوان أبي تمام بشرح التبريري : تحقيق: محمد عبده عزام ، دار المعارف — القاهرة — ١٩٦٥. ٦٨/٢.

(٢) أبو القاسم محمد بن علي الهمداني، المعروف بابن البراق من أهل وادي أش. خرج منها في الفتنة فسكن مرسية ثم انصرف إلى بلده بعد موت ابن سعد ومات فيه. ينظر: تحفة القادم: ص ١١٢. المختضب من تحفة القادم: ص ٨٠، الذيل والتكملة: ٤٥٧/٦، المغرب: ١٤٩/٢، الاحاطة: ٤٤٨/٢ — ٤٩١.

(٣) الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد الجذامي ، ابن مردنيش، أمير شرق الأندلس تحرك من بلاد الموحدين فتغلب على جيان وأبذة ، وطاعت له بياسة، ونازل قرطبة، ثم اشبيلية عام ٥٥٤. وفي سنة ٥٥٧ وجهه صهره ابن حمشك لمحاصرة غرناطة فسد ما بينه وبين صهره بسبب ابنته، فاختل أمره وسأل ابن حمشك إلى الموحدين، فتوالى الحصار على ابن مردنيش فكر إلى مرسية وتوفي بها عام ٥٦٧. ينظر: أعمال الاعلام: ص ٢٦١-٢٦٢، العبر وديوان المبتدأ والخبر: ١٦٦/٤، الاحاطة : ٤٨٩/٢.

(٤) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: ص ١٣١.

هل لي بهاتيكَ الظبا إِماعةٌ أم هل لذاك السربِ شملٌ يُنظَمُ؟
حقاً فقدتُ الذاتَ عندَ فراقِهِم فالشخصُ يَوجدُ والحقيقةُ تُعَدَمُ^(١)

وإذا ما توغلنا في ثنايا الشعر الأندلسي على عصر الموحدين ربما لا نجد سمات ومعاني الغربة السياسية بصورتها الواضحة التي وجدناها في عصر المرابطين، فهناك عدد من الشعراء غادر الأندلس نهائياً إلى المشرق العربي أو بلدان إفريقيا كابن جبير، وابن سعيد، كما أن معظم المدن الأندلسية قد سقطت في هذا العهد، فأصبح الشعر فيه لا يُعنى بالغربة السياسية بحد ذاتها، بل كان إلى البكاء والرتاء أقرب.

أما عن عصر بني الأحمر؛ فقل فيه مثلما قلناه في العصر السابق، فقد ظل الشاعر الأندلسي يبكي مدنه التي لم يحافظ عليها من قبل، ويندب حظه الذي صيره إلى هذا القدر المشؤوم. وعلى الرغم من هذا، فإن هناك نصاً شعرياً مكوناً من تسعة أبيات لابن الأحمر، يؤكد فيه غريته التي سببها له أبناء عمه من الملوك الأحمريين والسلطين الناصريين، إلا أن معاني الحنين والشوق والدموع الباكية والجفون المفجعة هي التي غلبت على النص^(٢).

في النصوص السابقة التي استشهدنا بها لموضوع الغربة السياسية، وما حطبت به من شكوى وأنين على الشاعر الأندلسي تمحورت ومعاناته الأدبية فضلاً عن معاناته الاجتماعية والاقتصادية، كان المكان فيها مغيباً وراء تلك المعاناة، وخلف هاتيك المشاعر التي ازدحمت بشكل مهم وكبير في تلك النصوص. وكم لاحظنا أثر التغير في المكان في تنامي تلك المشاعر وفي جريان علاقات الشاعر الأندلسي بمجتمعه وجباعته في مسار جديد يفرضه ذلك التغير، فـ (التغير الذي يصيب المكان سيؤثر حتماً على البناء النفسي والعقلي للفرد والجماعة، وسيعيد صياغة قيم جديدة تنتسج مع رحلة التغير)^(٣).

٤. الغربة النفسية. ولدت هذه الغربة في الشعر الأندلسي إثر الإحباطات النفسية والهزات (السايكولوجية) التي يتعض لها الشاعر الأندلسي. وعلاً سائلاً يسأل: ألم تكن أنواع الغربة الأخرى مبعثها العامل النفسي غير المستقر تبعاً لعدم استقرار

(١) الإحاطة: ٤٩١/٢.

(٢) ينظر: أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن الهجري: ص ٢٥.

(٣) دلالة المكان في مدن الملح: ص ٢٦.

الأحداث والظروف حول الشخصية الأندلسية؟ أو باحثاً يقول: ألا تخضع مراقف الشعراء من المكان لموقف الأثر النفسي ، ومدى تفاوته سلباً وإيجاباً على تلك المواقف؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها نقول: إن المادة الشعرية التي ظفروا بنا من تركة الشعراء الأندلسيين ، وإرثهم الباقي — مدة دراستنا — يدلنا دلالة حقيقيـة على جميع مسميات الغربة التي اقترحناها ، ويحاور الظاهرة المكانية — موضوع الدراسة — ويكشف عن سماتها وخصائصها من خلال تلك المسميات. وسيأتي باحثون آخرون في قابل الأيام والأعوام ليكشفوا لنا عن معان ومسميات جديدة للغربة تشيرها موضوع عائلهم، فيعالجونها — وهذا واجبهم — من وجهة نظر تلك الموضوعات. وما نتبناه من طروحات فكرية وأدبية، وبالجملة فإن دوافع الغربة النفسية لم تبعد بعيداً عن دوافع أنواع الغربة التي تطرقنا لها من قبل، أما المشاعر التي أفصح عنها الشاعر الأندلسي في غربته هذه فكانت:

— مشاعر عامة تجسدت في : البكاء، والصراخ، واستعادة الذكريات الجميلة التي مضت دون عودة.

— مشاعر خاصة تجسدت في : نقمة الدهر، وتبذل الزمان ، والمكان وملابسائه الجديد وملابسته وتناقضاته التي تجعله يثير الحسرة ، ويبعث اليأس، ويدل على المحن والكوارث.

وحتماً؛ إن عوامل الغربة مهما كان نوعها — تزداد حدة وانفعالاً كلما زادت عوامل القلق والاضطراب من حولها، والشاعر الأندلسي منذ عصر المرابطيين حتى نهاية غرناطة وعصرها، واجه تقلبات كبيرة وأزمات عدة، ابتدأت بانحسار مضممار الأدب ، وتراجع دور الحركة الثقافية ولا سيما الأدبية في المجتمع الأندلسي وما لاقاه الشاعر والأديب من أهمال وحرمان، انتهت بضياغ وطنه ، وبضياغ هذا الأخير فقد الأندلسي — عموماً — ، والمبدع — خاصة — عزه ومجده ، وأفل نجمه إلى يومنا هذا.

وعلى الرغم من أن الغربة النفسية تتضمن بين ثناياها جملة اتجاهات : كالغربة من الدهر^(١) أو من فراق الحبيب^(٢)، أو تغير الزمان وضيق أخلاق الرجال^(٣)، إلا أننا نختص بأهمية المكان في حديثنا هذا، وما يؤديه من أثر في تكوين شاعر الغربة وتأجيح عواطفنا نحو الشخص الغريب نفسياً وتحليل شخصيته وإنتاجه.

في قطعة لأبي الأصبع عيسى بن محمد العبدري (ت ٥٧٦هـ) المعروف بابن الواعظ^(٤)، تتجسد غربته النفسية بشكواه من مدينة ألس^(٥) التي سكنها، ومن جفوة أهلها وأهمالهم لنزلاته الأدبية والاجتماعية (مصوراً استيحاءه النفسي وعزلته عن قومه حتى غدا كأنه في الحبس، وهم فوق ذلك لا يعون ما يقوله ولا يفهمون لسانه)^(٦)؛ يقول:

عدمتُ بأخمالي وجوهاً من الإنسِ فها أنا في الأيامِ مستوحشُ النفسِ
برنتُ زماناً من حوادثِ أمرضتُ وألُسُ لعمري أسلمتني إلى النكسِ
أقمتُ بها كالسيفِ لارمَ جفنه وإن كنتُ حياً مثلاً مُرسٍ في رمسِ
فإني بأدبي أتيتُ جزيرةً فعوقبتُ منها بالإقامة في حبسِ
وهل وحشة الإنسان إلا بمثلها فصيح لسان بين ألسنة خرسِ
شروني رخيصاً ليس يدرون قيمتي وقد تُشترى الأعلقُ بالثمنِ البخسِ^(٧)

الاضطراب والتردد والخوف والقلق المزروع بهذه الأبيات يحمل مرارة عميقة يحسها الشاعر الذي يعيش بين أناس لا يعرفون أهميته ، ولا يقدرّون موهبته. وهذا ما يجعله حاقداً على الدهر . ناقماً على مكانه الذي فرض عليه هذه الحياة، وهؤلاء الناس.

(١) ينظر: ديوان ابن خفاجة: ص ٢٧٨، ديوان ابن الزقاق: ص ٢٣١، زاد المسافر: ص ١٢١، نفع الطيب: ٤٩١/٢.

(٢) ينظر: شعر ابن السيد: ص ١١٢-١١٣، ديوان الأعمى التطيلي: ص ٧٨، شعر أبي جعفر بن سعيد: ص ١٤١، ابن الجباب (حياته وشعره): ص ٢٦١-٢٦٢ (والأشعار في: الإحاطة: ١٣٥/٥٠، نفع الطيب: ٤٣٨/٥-٤٣٩)؛ ديوان يوسف الثالث: ص ٧٧-٧٨.

(٣) مرّت بنا تجارب في هذا الموضوع، كتجربة ابن سعيد، وتجربة أبي حيان.

(٤) للمزيد من شعره ينظر: تحفة القادم: ص ٨٣-٨٥، المقتضب من تحفة القادم: ص ٦٢.

(٥) ألس: من كورة تسمى. بينها وبين أريولة خمسة عشر ميلاً.. ينظر: الروض المعطار: ص ٣٠.

(٦) شعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: ص ٢٢٨.

(٧) تحفة القادم: ص ٨٣، المقتضب من تحفة القادم: ص ٦٢.

لقد تعالت الأصوات الصغيرية في القطعة ، ففضلا عن السين – الروي – فقد انتشر معه صوتا الزاي والصاد. وهذه الأصوات تعمل على إشاعة نسق صوتي عال، في النص ، وهذا ما أراده ابن الواظ. فالتشكيل الصوتي العالي، والبنية التركيبية – المقطعة – .. وما تزامن فيها من صور ، كلها أمور عملت على أخراج النقطعة بصورة أثرت في متلقيها، وتركت بصمات صاحبها في عواطفنا وقلوبنا.

وقد تكون عوامل القلق والاضطراب نابعة من جهات أخرى غير التي رانها في شعر ابن الواظ والتي كانت أغلبها تعود لمسائل ذوقية ، وأزمات شخصية . فالشاعرة الشلبية أم الهناء (ت ٦٠٩ هـ)^(١) اشكت مدينتها شلب^(٢) . فاستبداد حاشية وأصحاب الخراج فيها. بعد أن سعى هؤلاء إلى جباية الضرائب وجني الموائ من أهلها بالاكراه، تقول موجهة شعرها إلى الخليفة المنصور من ملوك الموحدون:

قَدْ أَنْ تَبْكِي الْعِيُونَ الْآبِيَةَ	وَلَقَدْ أَرَى أَنْ الْحِجَارَةَ بَاكِسَةً
يَا قَاصِدَ الْمَصْرِ الَّذِي يُرْجَى بِهِ	إِنْ قَدَّرَ الرَّحْمَنُ رَفْعَ كِرَاهِيَةِ
نَادِ الْأَمِيرَ إِذْ وَقَفْتُ بِبَابِهِ	يَا رَاعِيَا إِنَّ الرِّعِيَةَ فَانِيَةَ
أَرْسَلْتُهُمَا هَمْلًا وَلَا مَرَعَى لَهَا	وَتَرَكْتُهَا نَهَبَ السَّبَاعِ الْعَادِيَةِ
شَلْبَ كِلَا شَرَابٍ وَكَانَتْ جَنَّةً	فَأَعَادَهَا الطَّاعُونَ نَارًا حَامِيَةِ
خَافُوا وَمَا خَافُوا عَقُوبَةَ رَبِّهِمْ	وَاللَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةُ ^(٣)

وعلى الرغم من أن الأبيات تطغى عليها تقريرية واضحة ، وتبدو الصيغ النثرية فيها مشاعة، لاسيما في محاكاة الفاصلة القرآنية بحرف الروي الياء الموصول بالياء، إلا أننا لا نجد مشقة في استكناه دلالات الغربة النفسية، فإذا كان أهل شلب يشكون انطام سراً، ويضيقون ذرعاً بجباة الأموال ، فإن الشاعرة كانت جريئة صريحة في إداعة هذه

(١) تعرف بمدينتها ، وكنيتها إما أخبارها فقليلة. ينظر: نفح الطيب: ٢٩/٦ – ٣٠. الأدب الأندلسي – موضوعاته وفنونه – ص: ٢٣٢ ، الشعر النسوي في الأندلس: ص ١١٨. الشعر النسوي الأندلسي (أعرضه . خصائصه الفنية): ص ١٢٦.

(٢) شلب: هي قاعدة كورة اشكوانية. وهي بقلي باحة. بينها وبين قرطبة عشرة أم . ومن شلب إلى بطليوس ثلاث مراحل. وقيل لا يوجد بالأندلس بعد اشبيلية مثلاً. ينظر: الروض السطار: ص ٣٤٢. معجم البلدان : ٣٥٨/٣.

(٣) نفح الطيب: ٢٩/٦ – ٣٠، الأدب الأندلسي – موضوعاته وفنونه – ص ٢٣٣.

الشكرى على مسامح الخليفة — ولي أمير المسلمين — فانتصرت لنفسها وأهلها، فالوثيقة التي قدمتها — الشعر — هي وثيقة اجتماعية وإنسانية قبل كل شيء.

إن المكان في النص حمل دلالة العراء، بسبب تصرفات القائمين فيه ، ولذا وجدت الشاعرة هروباً إلى الممدوح (السنطة العليا) من كل ما يعتري شلب من أحداث وظروف أساءت إليها وجعلتها مكاناً ظلوماً جالباً الظلم والبغي لأهله بغير حق أو عدل. وأخيراً، لنا اطلالة على ديوان ابن فركون لنضع نصاً من شعره على مائدة الغربة النفسية فنجد بين خصائصها ، ونعرف أثر المكان فيها. هذا النص كتب أثناء الحرب لتحرير جبل الفتح (جبل طارق)، وفي سفر ابن فركون الذي يبدو أنه كان طويلاً فائقاً مضجعه، وأسهر جفنه ، وعلى أية حال، إننا نشعر أثر الحرب في هذا النص والذي بعده. فظروف المعركة من رؤية الصعاب والهلاك، والوقوف جنباً إلى جنب أمام الموت، واضحة بيّنة. وما ينتج من المعركة في نفس المحارب من انفعالات نفسية نتيجة البعد عن الديار والمخاوف العميقة التي يتركها العدو، والحالة النفسية المتأهبة لقتاله ومباغتته، لا يخفى على قارئ شعر ابن فركون للوهلة الأولى. يقول ابن فركون:

هَلْ بَعْدَ طَوْلٍ تَغْرِبِي وَفِرَاقِي أَرْجُو اللَّقَاءَ وَلَاتَ حِينَ تَلَاقِي؟!
لَمَّا رَحَلْتُ عَنِ الْمَنَازِلِ لَمْ يَزَلْ سَكَنِي الْغَمَامُ بِقَلْبِي الْخَفَّاقِ

يشكو ابن فركون في الأبيات الأولى طول النوى والبعد عن الأهل والأحباب . والاستفهام الذي يريد جواباً في البيت الأول أعقبته جملة من المفارقات التي لا تخرج عن موضوعنا الغربة النفسية بكل مسمياتها ومدلولاتها . فالبعد يستدعي الشوق والحنين، يقول:

يَا حَادِي الْأَطْعَامِ مَالِكَ السَّرِيِّ اللَّهُ فِي الرَّمَقِ الَّذِي هُوَ بَاقِي
هِيَ دَوَائِرُ أَحِبَابِي وَمَوْضِعُ صَبُوتِي وَمَحَلُّ جِيرَانِي وَرَبْعُ رِفَاقِي

والشوق والحنين مع البعد وطول الغربة يستدعي الحسرة، وضياح الأمل ، ويجلب اليأس :

يا سائلي عن شرحِ حالي ليتني لو كنتُ ألقى بعض ما أنا لاقٍ
ماذا أقولُ وطولُ كِبَيِّ لا يفي بحديثٍ ما عندي مِنَ الأشواقِ^(١)

وهذا النص بما فيه من هذه التدايعات الباكية المؤلمة استدعى نصوصاً أخرى، فتغيرت القافية واستبدل حرف الروي، وبقيت المشاعر، وزاد الانفعال، وأنتالت صور الغربة الحزينة وتعددت ألفاظها، وأساليها، يقول:

أحبابنا هل لنا بعدَ النوى طمعُ في القربِ أو هل زمانُ الأتسِ يرتجعُ
إذا تذكرتُ ما بيني وبينكم يكادُ قلبي مِن ذكراهُ ينصدعُ^(٢)

وقلنا في أثر الحرب على نصوصه، أن صورة الهلاك لا تغيب، وأمل اللقاء

بعيد...

ففرقَ الدهرُ ظلماً بيننا وغداً ما كانَ طوعَ بدينا وهو مستنعُ
ما كانَ ظني أن القربَ يعقبهُ بعدُ ولا أن طولَ الوصلِ ينقطعُ^(٣)

إن المكان الحربي كان وراء كل هذه المشاعر من غربة وبأس وُبعد وحنين، كما أن قصيدة الحرب تضم بين ثناياها لوحات عدة، ومضامين شتى، فهي تقدم مدحاً للقادة والأبطال، وتهتم برثاء الشهداء وتأبينهم، وقد تنتج بعض الأخوانيات مثل العتاب والاعتذار بين الشاعر ونفس من أقرانه ولداته، وهي تفرز غربة نفسية موجهة متصلة باللوحات الماضية - شكلاً ومضموناً - . ولذا وفق ابن فركون في شعره الحربي فجعله يدور في أغلب الأغراض، مشتملاً على معظم الصور . ومن هنا كان شعره الحربي كباقي شعره متيناً، أصيلاً من النواحي التركيبية والدلالية والصوتية.

(١) ديوانه: ص ٢٥٩.

(٢) م. ن: ص ٢٩٥.

(٣) م. ن: ص ٢٦٠.

بـ. الحنين. إن نزعة الحنين إلى الأوطان نزعة وجدانية إنسانية تشمل كل العهود ومختلف الأزمان. وسواء أكانت هذه النزعة الوجدانية تتمثل في الحنين إلى مدينة الشاعر – المكان الأم – أم تتمثل في الحنين إلى الأهل والأحباب والخلان – المكان الذكرى – أم تتمثل في الحنين إلى مدن أخرى ، وأناس آخرين – المكان البديل – فإن المشاعر تبقى هي هي، من حيث شدة التوجد، ومعاناة البعد، وبكاء الأطلال وشكوى الزمان فالحنين (تعبير عن رغبة ذاتية صادقة في رؤية الموطن الذي نشأ فيه الشاعر، وما فيه من أهل وأصحاب مشوبة بخلجات وجدانية، وأحاسيس مرهفة تنير الأسى والندم لفراقه والحسرة على نعيمه)^(١).

لقد قدمنا القول في حديثنا عن الغربة أنها تستدعي حنيناً وشوقاً إلى الموطن الأصلي. وتبكي فراقه ، وتتأسف لذكرياته ، وتندب بعده وفقده. وعللاً بلداً عانى مما عانى من ضياع لمدنه، وانتهاك حقوق أهله ، وتشرد لمثقفيه ومبدعيه كالأندلس جعلت مقيميه في سفرٍ وترحال، وفي طول هجرة ونأى عن الوطن الذي ولدوا فيه، وعرفوا به، لقد ظهر شعر الحنين في الأندلس في بداية الدولة الأموية^(٢)، حتى مع الجند والقواد الذين أتوا محررين ناشرين أضواء الإسلام في هذي الربوع الخضراء. والقطعة التي قالها الأمير عبد الرحمن الداخل (ت ١٧٢هـ) عندما نظر إلى نخلة، فسهجت أشجانه وتذكر موطنه، تكفيها همنا في معرفة المشاعر الإنسانية التي تقف وراء الحنين. وما يعتلي النفس عندما ترى ما يذكرها بوطنها، وأهلها، ويثير في كوامننا عواطف الغربة القاسية، ومشاعر الحنين المؤلمة، يقول الداخل:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة^٣ تناعت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت: شبيهي في التغرب والنوى وطول اكتنابي عن بني وأهل
نشأت بأرض أنت فيها غريبة^٤ فمثلك في الأقصاء والمنتأى مثلي^(٥)

إن النخلة هنا تحولت إلى رمز للبيئة التي تكثر فيها وتعرف بها وهي المشرق ، موطن الشاعر وبيئته الأولى. فهذه النخلة تحولت إلى دلالة نفسية أثارت لدى الشاعر دوافع

(١) القصص القرآني في الشعر الأندلسي : ص ٢٠١.

(٢) ينظر: مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص ١٣٥.

(٣) نفح الطيب: ٥٤/٣.

الشوق والحنين ، وتمنى لو كانت رؤيته لها في بلده الذي اعتاد أن يراها فيه، وألف مكانها هناك وأحبه.

وعلى أساس هذا العامل النفسي راح شاعرنا الأمير يطيل الوقوف أمام هذا الرمز – المتكلم الصامت – فيبادله الحديث ويشكو له الحال. إذ اشتركا – الشاعر والرمز – بأواصر الحزن المختلفة كالبكاء وطول الاكتئاب والنأي والحنين.

وعلى أية حال ؛ لم تبق مشاعر الحنين كما هي في العصر الأموي فقد شهدت تطوراً ملحوظاً في العصور التي تلت هذا العصر، سواء أكان هذا التطور يختص بأغراض الشعر الأندلسي وموضوعاته، أم كان يعنى بالنص الشعري نفسه ومدى تأثره بهذه المشاعر في البنية واصورة والصوت.

لقد مرت الأندلس منذ عصر المرابطين إلى سقوط غرناطة بالفاجعة تلو الفاجعة ، والنكبة خلف النكبة، ولقد تحدثنا في الفصلين السابقين عن هذه العصور ما حدث فيها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وإدارياً. ولذا ، فلربما تكون الأسباب التي تدعو لشاعر للرحيل عن بلده كثيرة إذا ما ارتبطت بهذه الأحداث أولاً وأخيراً. وعلى هذه الشاكلة فإن أنواع الحنين اتسعت وشملت نواحي أخرى لم تكن موجودة في العصر الأموي ، لاسيما بعد سقوط المدن واضطرار الشاعر لترك مدينته والبعد عنها والشوق إليها. فما أن انتهت دولة الموحدين حتى (سقطت معظم المدن الأندلسية بيد الإسبان. وأدى الأمر بالتالي إلى ازدياد هجرة الأندلسيين من ديارهم وترك أوطانهم ، مما أفاض الدموع في أشعارهم، وزاد من شدة اللوعة، وتوهج الحسرة ، والشوق والمعاناة)^(١).

إن الحنين الأندلسي يذمي القلوب ويبكي العيون، فأنت لا تعرف أتبكي من تلك المشاعر، والخلجات والآهات من جهة الشاعر – الإنسان المتألم الباكي – أم تبكي على تلك الحضارة التي ولت. وأندثر منها أسماء منشئها، ومحي منها كل ما يمت إلى أصحابها الحقيقيين بصلة. ومن هنا كانت وقفتنا على المكان الذي أنتج هذه الآهات والانفعالات وقفة مؤلمة ومعالجة الأفكار والعواطف التي ينطوي عليها شعر الحنين في الأندلس معالجة محزنة مبكية، إن هذه المعالجة فرضت علينا تقسيم حنين الشاعر الأندلسي، وشوقه إلى المكان الذي تركه إلى قسمين اثنين^(٢):

(١) مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص ١٣٥.

(٢) قسم د. عدنان مصطفى صالح الحنين إلى نوعين : الحنين إلى الوطن الكبير والحنين إلى الوطن الصغير. ينظر: في الشعر الأندلسي: ص ١٠٧-١١٢.

١. الحنين إلى مدينة الشاعر مكانه الأول (المكان الأم).

٣. الحنين إلى معاهد الصبا، ومواطن الأهل والخلائب والأحباب (المكان الذكرى).

لقد كانت (الأندلس - عند أهلها - جنة الله في أرضه، وهم حيث ذهبوا لا تغادرهم صورة بلادهم ، ولا يملون من ذكرها والتشوق إليها.. وهذا التصور من الشعراء لبلادهم قديم، يرجع إلى الواقفين الأوائل: "موصول إلى آخر زمان المسلمين في الأندلس" ^(١)، ولذلك صدحت حناجرهم بذكر مزاياها، ووصف مفاتها، فكانت عندهم الحب الذي يفوق كل حب، والجمال الذي يعلو أي جمال . يقول فيها ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأندلسية المعروف ، وجنانها المشهور:

إِنَّ لِلْجَنَّةِ بِالأندلسِ مُجْتَلَى حُسْنٍ وَرِيّاً نَفْسٍ
فَسْنَا صَحْبَتِهَا مِنْ شَنِيبٍ وَدَجَى لَيْلَتِهَا مِنْ لَعَسٍ
فَإِذَا مَا هَبَتْ الرِّيحُ صَبَاً صَحَتْ وَاشْوَقِي إِلَى الأندلسِ ^(٢)

وكم نلاحظ أثر الشوق إلى الأندلس في الأبيات الماضية ، لأنها بعد أن ذكر مزاياها وما يكون في ليلها وصباحها، ولا يقف ابن خفاجة عند هذه الحياة التي سبها طالت فإن مصيرها الفناء، ومهما كانت جميلة فنهايتها الزوال ، بل؛ يخاطب أهل الأندلس - جميعا - أن جنة الخلد في ديارهم ، وأنهم إذا ما اختاروها موطناً ، لا يخشون أن يدخلوها بعدها ناراً، أو يعرفوا عذاباً ، يقول:

يَا أَهْلَ أُنْدَلُسِ لَهِ دُرُكُكُمْ مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارُ
مَا جَنَّةُ الْخُلْدِ إِلَّا فِي دِيَارِكُمْ وَهَذِهِ كُنْتُ لَوْ خَيْرْتُ اخْتَارُ
لَا تَتَّقُوا بَعْدَهَا أَنْ تَدْخُلُوا سَقَرًا فَلَيْسَ تَدْخُلُ بَعْدَ الْجَنَّةِ النَّارُ ^(٣)

أما أبو عبد الله محمد بن سفر المريني، فقد عمد إلى التجزئية في رسم الصور التي التقطها الأندلس . واهتم بالتفصيل عن كل ما في تلك الأرض من أنهار وأشجار ورياض ، وقدم (صفات حسنة أخرى من صفات الأندلس وهي صفات وخصائص كافية

(١) في الأدب الأندلسي: (الدالية) : ص ١٣٢.

(٢) ديوانه: ص ١٣٦.

(٣) ديوانه: ص ٣٦٤، وينظر، مجموع شعر الرندي : ص ٧٠٥-٧٢٢.

لتجعل كل من يعرفها يتعلق بها. فكيف بأبنائها والمستظليين من أجيال عتيقة بظلالها؟^(١)، يقول:

في أرض أندلسٍ تلتذُّ نعماءُ ولا يفارقُ فيها القلبُ سرَّاءُ
وليسَ في غيرِها بالعيشُ مُنتفعٌ ولا تقومُ بحقِّ الأُنسِ صهباءُ
واينِ بعدك عن أرضٍ تحضُّ بها على المدامَةِ أمواهُ وأقياءُ؟
وكيفَ لا يبهجُ الأبصارُ رؤيتَها وكل روضٍ بها في الوشي صنعاءُ
أنهارُها فضةٌ والمسكُ تربتُها والخز روضُها، والدرُ حصباءُ

وعلى هذه الشاكلة من الحسن والجمال، تأتي أوصاف الهواء والماء والظلال والأغصان والأطيار، حتى ينتهي بنتيجة تخالف قوانين الأرض، وتعاكس آراء الناس عندما يجعل الأندلس الرياض الوحيدة، وكل الأرض صحراء جرداء قاحلة، فيقول:

فيما خلعتُ عذاري ما بهِ عوضٌ فهي الرياضُ، وكلُّ الأرضِ صحراءُ!^(٢)

(فهذا شعور عارم من ممثل فنان، ينوب عن أهل الأندلس جملة في التعبير عن التعلق بالاندلس، وفي النظر إلى بلادهم على أنها جنة الأرض بلا منازع)^(٣).

فمن كانت هذي بلاده، وكان هذا تعلقه بها، وشدة حبه لها، فكيف سيكون حينه إذا ما ابتعد عنها، أو اضطر للسفر خارجها؟ وكيف سيرى المكان الجديد — مهما كان — بعد أن أسبغ على مكانه الأول كل هذه الصفات؟ وحمله كل هذي المزاي من حسن الجو، ودنو الظلال، وتدفق الأنهار؟ بل ورسم حتى معالم المكان الأخرى من النعيم المقيم، والعيش الرغيد، و... و...؟

١. الحنين إلى مدينة الشاعر (المكان الأم). يبقى مكان الشاعر الأول، وموطنه الذي ولد فيه يمتلك حضوراً خاصاً في وجدانه وفي شعره. وتظل مدينته التي نشأ فيها

(١) في الأدب الأندلسي: (الدابة): ص ١٣٣.

(٢) نفع الطيب: ٢٠٩/١، وينظر: ٢٨٨/١.

(٣) في الأدب الأندلسي: (الدابة): ص ١٣٣.

أولاً وأحبها وأهلها هي المثير الفاعل لابداعه ونتاجه^(١)، سواء أبقى فيها وشهد تقلباتها، أم غادرها ورأها تندب الأغراب وتبكي الخراب، وتشكي سوء العاقبة، وتغير الأحوال والأشخاص.

وتبقى أواصر التعلق بين الإنسان المبدع — أيا كان ابداعه — ومكانه الأول متينة أصيلة مبنية على أسس الدوام والاستمرار، فما أن يجد الابداع إلى نفسه سبيلاً حتى نراه يذكر ذلك المكان، ويصفه، ويأتي على خصائص قومه، ويعدد مزاياه ومحاسنه، تدفعه لذلك دوافع عدة في مقدمتها وأهميتها الوفاء لمكانه الأم، ورد الدين لأهله الذين عرفهم وأحب عشتهم، وبكى لفراقهم وبعدهم. فيا ترى كيف كان وفاء الشاعر الأندلسي لمكانه الأول هذا؟ وكيف كانت مشاعره وهو ينظر إليه وقد دمرته أيدي المحتلين الطامعين؟ وكيف كانت حيرته تجاه تلك الأوضاع وهو لا يدري أيكي عليه أم يستنفر المقاتلين لأجله، أم يلعن الزمان الذي عاش فيه، أم يصب جام غضبه على الذين أوردوه الموارد، وجعلوه يؤول إلى هذا المصير المأساوي المشؤوم؟

ابن حمديس الذي رأينا كيف فعلت الغربة — بأنواعها — فعلها في شعره، فأكسبته طابع الحزن، ورسمته بألم الشكوى ولوعة البعاد، كان الحنين إلى وطنه همه الثاني الذي زاد ذلك الحزن والألم (فقد فارق موطنه (صقلية) وهو في ريعان الشباب. ولكن احساسه بوطنه ظل قوي الجذور يحن إليه ويعتز به أشد الاعتزاز^(٢)).

لقد انتجع ابن حمديس اشبيلية وأقبل على ابن عباد الملك الشاعر الجواد، ولكنه لم يهنأ كثيراً بهذا الملك الكريم، فشهد تغير الحال، وأضطهاد المعتمد وأهله، وخسرانهم لمملكتهم وديارهم، وفي هذا الوقت العصيب بقي شاعرنا يسمع بما حل في بلده من غزوات. وما حاق بأهله من نكبات، فكان حنينه صارخاً في الكثير من أغراضه وفنون شعره. فالبحر كان بالنسبة لمثله تجربة مريرة قاسية، كلما نظر إليه كلما تذكر بلده فحن إليه. يقول:

وراءك يا بحر لي جنّةٌ لبست النعيم بها لا الشقاء
إذا حاولت منها صباحاً تعرضت من دونها لي مساءً

(١) ينظر: المدينة في الشعر، دراسة في موقف الشاعر العراقي الحديث من المدينة: د. علي جعفر الحلاق، مجلة الأقاليم، ٥٤، ١٩٨٦، ص ٥٨.

(٢) مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص ١٣٦-١٣٧، ديوانه: مقدمة المحقق، ص ٥٤. الرب في صقلية: ص ٢٤٠.

فلو أنني كنتُ أعطى المني إذا منع البحرُ منها اللقاء
ركبتُ الهلالَ به زورقاً إلى أن أعانقُ فيها ذكاءً^(١)

(إن الشاعر في ساعة من ساعات الحزن والألم، يشعر بهبوط الليل عليه، وتصدم الصباح، ويحلو له أن يسكب الدموع على مراحب الصبا، بعد أن أجدبت وأمحلت، ويذكر غارات النورمان المتواصلة على وطنه، ويتمنى أن يستقل الهلال زورقاً، فيعانق الأماني هناك، ولا تتيسر الرحلة بغيره، فلا يلقي الحنان إلا وراء البحار)^(٢)، إنه (تعلق حميم بالوطن، وهيام بطبيعته الخلابة، وحنين جارف إلى ربوع صقلية واطلالها ومغانيها وهواء أديارها وغاباتها وجناتها وشمسها)^(٣).

ولم تكن صورة البحر هي الصورة الطبيعية الوحيدة التي عبرت عن معاني الحنين والشوق عند ابن حمديس، بل؛ كانت صورة الناقة وما عرف عنها من شدة الحنين لأبنائها وصغارها، من بين صورته أيضاً في مثل قوله:
أحنُّ حنينٌ النيب للموطن الذي مغاني غوانيهِ إليه جواذبِي
ومن سارَ عن أرضٍ ثوى قلبُهُ بها تمنى به بالجسم أوبى آيب^(٤)

ويأتي حنينه عادة في نهاية النص. وقبل هذه النهاية يقدم شاعرنا لوحات عدة تدعم خاتمته التي تكون معانيها دياره وأطلاله. وهذه اللوحات تدور حول البعد عن طفل صغير، ومحاوره مع امرأة - بالرمز الموهوم من أجل ذلك الصغير، ويطنب ابن حمديس في الحديث ليشمل سوء الحال، ومعاناة الفراق^(٥).

وفي نص آخر؛ يتكلم عن نفسه بدوافع الغربة التي جعلته سبراً من كل مكان، وتركته في ظلماء مظلمة، وفيها يخوض مغامرة غزلية وهمية تذكره أيام الشباب. وعيشه السعيد الذي كان فيه، ليصل إلى نهاية المطاف إلى تلك الديار وهاتيك الأطلال، وما أحسنه من ذكر، وما حبها من ديار:

(١) ديوانه: ص ٤.

(٢) البحر في شر الأندلس والمغرب: ص ٢٩ - ٣٠.

(٣) ابن حمديس الصقلي - حياته وشعره - ص ١١٤.

(٤) ديوانه: ص ٣٣. النيب: الواحدة ناب وهي الناقة المسنة.

(٥) ينظر: م. ن: ص ٢٤٠-٢٤١.

أَلَا حَبْذَا تَلْكَ الدِّيارَ أَوَاهِلًا وَيَا حَبْذَا مِنْهَا تَنْسَمُ نَفْحَةً
وَيَا حَبْذَا الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَحَبْذَا مَفَاضِلُ مِنْهُمْ فِي الْقُبُورِ وَأَوْصَالُ
وَيَا حَبْذَا مَا بَيْنَهُمْ طَوْلُ نَوْمَةٍ تُنْبِئُهُنَّي مِنْهَا إِلَى الْحَشْرِ أَهْوَالُ^(١)

ويذهب د. منجد ومصطفى بهجة في معاني حنينه ابن حمديس وشوقه إلى وطنه مذهباً، فهو يرى في قصائد ابن حمديس الحربية التي قالها يعظم مراسم البطولة، ومعالم الشجاعة لابناء جلدته في سرقوسة^(٢)، ما هي إلا من اقترانها عموماً بتلك المعاني. وما هي إلا مشاعره المفتعلة نحو قومه ومواطن قومه^(٣) يقول:

يَخُوضُونَ بَحْرًا كُلَّ حِينٍ إِلَيْهِمْ بِيَحْرٍ يَكُونُ الْمَوْجُ فِيهِ قَوَارِسًا
وَحَرْبِيَّةٌ تَرْمِي بِمَحْرَقٍ نَفْطِهَا فَيَغْشَى سَعُوطُ الْمَتَوِّتِ فِيهَا الْمَعَاطِسَا

وعلى هذه النغمة المججلة كانت سرقوسة منيعة على الكافرين ، فيهدد البلاد معروفة بأبنائها فوق الأرض وتحتها، وإن طالتها أيدي الشياطين فما هي إلا سنة الأسود ، وفرحة الذئب:

وَاضْحَتْ لَهُمْ سَرْقُوسَةٌ دَارٌ مَنَعَةٌ يَزُورُنَ بِالْدِيرَيْنِ فِيهَا النَّوَاوِسَا
مَشَوْا فِي بِلَادِ أَهْلِهَا تَحْتَ أَرْضِهَا وَمَا مَارَسُوا مِنْهُمْ أَيْبًا مُمَارِسَا
وَلَوْ شَقَّقْتَ تِلْكَ الْقُبُورَ لَانْهَضَتْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَجْدَادِ أَسْدُ عَوَابِسَا
وَلَكِنْ رَأَيْتُ الْغَيْلَ إِنْ غَابَ لَيْثُهُ تَبَخَّرَ فِي أَرْجَائِهِ الذَّنْبُ مَانِسَا^(٤)

لقد كان الحنين غزيراً في شعر ابن حمديس فـ (نكاد نلمس معانيه ونحسها في معظم قصائده ومقطوعاته. وروح البعد وحرقة الفراق والنوى تستشري في خلاياه ، وبين أجزائه، وتطبع فنه بطابع خاص متميز)^(٥). ويمكننا القول أن معانيه الغزلية حدثت

(١) ديوانه: ص ٣٥٩.

(٢) (أكبر مدنية بجزيرة صقلية، وكان بها سرير ملك الروم قديماً..). معجم البلدان: ٣/ ٢١.

(٣) ينظر : البحر في شر الأندلس والمغرب : ص ٣٠.

(٤) ديوانه: ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٥) ابن حمديس في المهجر: ص ١٤٤. وينظر: العرب في صقلية : ص ٢٥٨-٢٦٢.

(١) مشاعر الحنين، وجسدت مظاهره أيضاً؛ إذ كانت تشتكي الفراق والوداع وفيها حنين مبطن نحو من يحب — بلده وأهله —.

أما حنين ابن خفاجة فلا يقل عن حنين ابن حمديس جودة وعذوبة، وهنا ربما لنا وقفة جديدة مع الباحث^(٢) — قدمنا القول في رأيه — الذي يرى أن شقر مدينته لم تنل العناية التي يجب أن تكون في ديوانه، وإنه — بن خفاجة — لم يهتم كثيراً بما حدث لها حين غزاها وخربها السيد القمبيطور!

لقد (كان ابن خفاجة من أكثر شعراء بلده وصفاً لطبيعة الجزيرة وتغنياً بحاسنها وافصاحاً عن عشقه وتعلقه بمعالمها)^(٣)، فهو إذا ما حنَّ إليها لم ينسَ أرضها أو نهرها، يقول:

وحنَّ إلى شقر فحفَّ على السُرَّيْ يخوضُ خليجاً أو يحسبُ كثيباً
يؤمُّ بها أرضاً على كريمةٍ ومرتبعاً فيها إلى حبيبها
ونهرأ كما أبيضَّ المقبل سلسلاً وجزعا كما أحضرَّ العذار خضيباً^(٤)

(وكما كان الحمام في سجنه وشجوه ونواحه محركاً لأشجان الشعراء ومثيراً لأشواقهم ولواعج صدورهم ومهيجاً في نفوسهم مكامن الأشواق وذكريات الشباب والرح والليو بعد تقدم السن)^(٥). كان الحمام كذلك مصدر صور ابن خفاجة في حنينه إلى وطنه. فما أن يسمع بشدو الحمام وسجعين إلا ويثرن في نفسه أشجانه وأحزانه، فيبكي معهن معاهد صباه، وذكريات مرابعه، على شاملة قوله:

وافصحبت الورقاء فسي كلّ تلعةٍ نشيداً وقد رقَّ النسيم نسيباً
وكان على عهد السلو تغنياً يهيجُ إطرابي فعاد نحيباً

(١) ينظر: ديوانه: ص ٨.

(٢) هو الأستاذ عبد الرحمن جبير. رأيه في ص ٢٨٦ من هذا الفصل.

(٣) جزيرة شقر (الإنسان والمكان): ص ١٧٣.

(٤) ديوانه: ص ١١٢.

(٥) وصف الحيوان في الشعر الأندلسي: د. حازم عبد الله خضر، دار الشؤون الثقافية العامة — بغداد.

١٩٨٧، ص ١٢١، والمزيد ينظر: ص ١٢٦-١٢٩.

دعا بغروبِ الدمعِ والدارُ غُربةٌ^(١) فلم أرَ إلا داعياً ومُجيباً^(٢)

لقد بلغ تعلق ابن خفاجة ببلدته شقراً حداً جعله لا يطيق صبراً عنه إذا ما كتب الله له فرافقاً، أو بعداً، وما أن خرج عنها مضطراً ونزل غيرها من المدن حتى صدرت عنه قصائد في الحنين إلى جزيرته تتبض بصدق العاطفة ورهافة الاحساس، وشدة شغفه بموطنه الذي لا يعادله شغف (وتمنى أن ترجع أيامه وهو في أرض الجزيرة فيغدو بوابدها ورباهما، ويمرح ويانس بظباها)^(٣) وفي مثل قوله:

ألا هلْ إلى أرضِ الجزيرةِ أوبةٌ^(٤) فاسكن أنفاساً وأهدأ مضجعاً؟
وأغدو بوابديها وقد نضح الندى معاطف هاتيك الربى ثم أقشعاً
أغازل فيها للفضالة سنة تحط الصبا عنها من الغيم برقعا^(٥)

وكان لوقع جزيرة شقراً على ضفاف النهر الذي سُمي باسمها، ما زاد الطين بلة إذا كان ابن خفاجة - وغيره من شعراء الجزيرة - يتذكر تلك النزعات التي كانت تجري في النهر، وقضاء الساعات الماتعة في النظر إليه والتأمل بجريان الماء فيه، وغناء الأطيّار على شاطئيه، وفي مثل هذه الطبيعة الحاملة يقول في قصيدة عدها د. محمد الداية أنموذجاً لشعر الحنين في الأندلس^(٦):

بين شُقرٍ وملتقى نهرِها حيثُ أَلَقْتُ بنا الأمانى عصاهُ
ويغني المكاءُ في شاطئِها يستخفُّ النهيُ فحَلَّتْ حباها^(٧)

ولنا أن نكتشف عن عمق معاني الحنين، وشدة الحسرة والألم على ضياع مدينته التي نعم بظللها، وتقياً نعيمها في ألفاظ الندب، والبكاء وصراخ الآد الموجهة. فقد

(١) ديوانه: ص ١١٣.

(٢) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: ص ٢٢٧.

(٣) ديوانه: ص ١٢٨، وقال د. الداية إن عبارة الجزيرة هنا محيرة، فهل تعني الجزيرة الأندلس أم هي شقراً. ينظر: في الأندلس الأندلسي: ص ١٣٥. ولاشك في أن مقصد ابن خفاجة هو جزيرة شقراً فالأبيات التي تلي هذا البيت تعني بوصف شقراً وطبيعتها، كما أن ابن خفاجة لو أراد الأندلس لجاء باسمها صريحاً كما في الأبيات التي مثلنا بها في أول حديثنا عن الحنين إلى الأندلس كلها.

(٤) ينظر: في الأندلس الأندلسي: ص ١٣٥.

(٥) ديوانه: ص ٣٦٤.

انتشرت هذه الألفاظ بين جزئيات أبياته لاسيما بعد أن يقدم لنا وصفه الدقيق عن طبيعة مدينته، ذلك الوصف العاشق لها، الهاتف بمعالمها ومحاسنها. هاك قوله باكية متحسراً:
سجعتُ وقد غنى الحمامُ فرجعا وما كنتُ لولا أن تنثى لأسجعا
واندبُ عهداً بالمشقر سالفاً وظل غمام للصبا قد تقشعاً^(١)

وفي مثل قوله في تبدل الزمان، وتغير الأخوان على سعة استخدام من ألفاظ الحزن وتعاليلها داخل النص:

فيا لشجا صدر من الصبر فارغ وبالقذى طرف من الدمع ملان
ونفس إلى جو الكنيسة صبة وقلب إلى أفق الجزيرة حنان
تعوضت من واهأ بآه ومن هوى بهون ومن أخوان صدق بخوان^(٢)

وعلى شاكلة هذه الآه، وذلك الندب يأتي قوله:

فاندب المرج فالكنيسة فالشط وأقل آه يا معاهد أهما
آه من عبدة ترقرق بثأ آه من رحلة تطول نواها
آه من فرقة لغير تلاق آه من دار لا يجيب صدامها
لست أدري ومدمع المزن رطب أبكاه صباباً أم سقاها^(٣)

وعلى الرغم من تعدد أهات الشاعر. فمرة من الفرقة ومرة من البعاد وأخرى من تغير الزمان ورابعة من صمت الديار الطويل، فإن المكان بقي خلف تلك الأهات في هذا النص والنصوص التي قبله. فالشاعر إنما تتجدد حزناً، وتتألق بكاءً بفعل هذا العامل المهم، فهو — أي المكان — مثلما يبعث فينا مشاعر الطمأنينة والراحة والسعادة، مثلما يثير فينا مشاعر الحزن والأسى والألم إذا ما شاهدنا تتابع الظروف العسيرة من حوله، وتوالي الأحداث الجسام العظام على واقعه.

وإذا ما انتقلنا إلى عصر الموحدين، كانت صور الحنين إلى المدينة الأندلسية أقوى مشاعراً، واشد أحكاماً وسبكاً، فقد شاهد الشاعر الأندلسي — بعين الحزن واستمرارة

(١) ديوانه: ص ٥٦.

(٢) ديوانه: ص ٢٤٥. والكنيسة من معالم جزيرة شقر. ينظر: الروض المعطار: ص ٣٤٩-٣٥٠.

(٣) م. ن: ص ٣٦٥. والمرج والشط من معالم شقر، أيضاً. ينظر: الروض المعطار: ص ٣٥٠.

— سقوط العديد من المدن على يد النصارى الأسبان، كما شاهد مقتل أهلها، وخراب جمالها، فبعث في نفسه أحاسيس السخط والغضب والاستنكار. إلا أن صورة مدينته الجميلة وأحاديث ذكرياته الغابرة لم تغب عن باله فجسدها حنيناً وشوقاً وتوقاً في شعره. ناهيك عن بعض الشعراء قد غادروا الأندلس إلى بلدان أخرى خارج الجزيرة الفتحاء، فكانت تلك الصور والأحاديث كل ممتلكاتهم من ديارهم وأوطانهم، فلا غرو أن يبكوها في كل مناسبة، ويرددوها في كل كارثة.

ابن البراء التجيبي (المئة السادسة)^(١) الذي فارق موطنه وهو صغير منتزحاً إلى صحراء، لم يعدم الحنين إليه في تأويله وسراه، فهو إذ لم يعد إليه، ظل حنينه الهاجس المتين الذي يربط شاعرنا بمكانه الأول — الأم — فأنشد له كثيراً، وبكى على فراقه طويلاً بدمعه وفؤاده.. يقول:

عندي على الخضراء دمعٌ وأكفٌ والقلبُ أبردُ حرِّه والرمضاءُ
أودى ثِقافٌ فراقنا بقناتنا فأنادتِ اليزنيَّةُ السمرَّاءُ
نزحت بي الأقدارُ عن دارِ الهوى وقذفنني حيثُ الفؤادُ هواءُ
فإقامتي ما بينَ أظهرِ معشرٍ سيَّانٍ عندهم الدجى وذُكاءُ^(٢)

وفي حنينه تمتزج ذكريات الصبا بوجد عميق. وعلى الرغم من المدة القصيرة التي أمضاها في بلده إلا أنها كافية لتعلق دائم، فأيام الصبا والطفولة هي أهم أيام العمر فمهما كانت قصيرة فإن سعادتها لا تزول، وأن باقي الحياة يقوم على أولها، وحجة التجيبي في هذا القول هو إكرام جفن السيف من أجل نصله، وفوحان رائحة العنبر والورد من جهة المرأة ولو بقليل أو من بعيد. هالك قوله:

(١) أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن البراء، من أهل الجزيرة الخضراء، ومعدود في المجيدين من الشعراء. وله ديوان نظم ونثر كبير. فارق وطنه صغيراً منتزحاً إلى بلاد الصحراء. واستدح من كن بها من الأمراء. ينظر: تحفة القادم: ص ١٤-١٧، المقتضب من تحفة القادم: ص ٨، الوافي بالوفيات: السفدي. تحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر — بيروت، ١٩٧١/٨/٢٦.

(٢) تحفة القادم: ص ١٤، الوافي بالوفيات: ٢٦/٨.

أَجْنُ إِلَى أَرْضٍ لَبَسَتْ بِهَا الصَّبَا فَعَنْدِي لَهَا مِنْ أَجْلِ ذِكْرِ الصَّبَا وَجَدُ
وَمِنْ أَجْلِ نَصْلِ السِّيفِ أَكْرَمَ جَفْنَهُ وَمِنْ جِهَةِ الرِّيَا سَمَا الْعَنْبَرُ وَالْوَرْدُ^(١)

وعلى عادة الشعراء الذين يستسقون المطر لبلادهم أو لمرثيهم، دعا التجيبي للجزيرة بالسقيا، متحسراً على أيامه التي أمضاها بها متمنياً، لو تعود ، ولكن هيهات هيهات:
سَقَى وَأَكْفُ الْقَطْرِ الْجَزِيرَةَ إِنَّنِي إِلَيْهَا وَإِنْ جَدَّ الْفِرَاقُ لَوَامِرُ
دِيَاراً بِهَا فَارَقْتُ عَصَرَ شَبِيبَتِي فَيَا حَبْذا عَصَرَ الشَّبَابِ الْمَفَارِقُ^(٢)

أما ابن جبير الذي شد الرحال بعيداً عن غرناطة ، فزار مصر ومكة والشام وبغداد، فكانت مشاعر الحنين لموطنه لا تظاهيها مشاعر ، وشوقه لروية غرناطة لا يدانيه شوق، فهو إذا ما وصل إلى بغداد تنكر بلده، فاستسقى له، وابتهل إلى الله سبحانه برد كل غريب بعيد إلى وطنه، قال:
سَقَى اللَّهُ بَابَ الطَّاقِ صَوْبَ غَمَامَةٍ وَرَدَّ إِلَى الْأُوطَانِ كُلَّ غَرِيبٍ^(٣)

وكان هاجس الغربة عنده طاغٍ على احساسيه، وما انتارت الغربة إلا ولدت الحنين فيها هو — ابن جبير — يقطع غصناً نضيراً في بغداد فيموت بين يديه، ويفقد نضارته وخضاره فقال معتبراً وموازناً بين حالة الغصن، وموقف الغريب من الوطن الجديد:
لَا تَغْتَرَّبْ عَنْ وَطَنٍ وَادْكُرْ تَصَارِيفَ النَّوَى
أَمَّا تَرَى الْغَصْنَ إِذَا مَا فَارَقَ الْأَصْلَ ذَوِي^(٤)

وقريب من هذا المعنى في رسم صور الاشتياق والحنين إلى الوطن قول ابني الحسن سهل بن مالك الأزدي الغرناطي (ت ٦٣٩هـ)^(٥) عندما امتحن بالتغريب عن وطنه

(١) تحفة القادم: ص ١٤، الوافي بالوفيات: ٢٧/٨.

(٢) تحفة القادم: ص ١٤، المقتضب من تحفة القادم: ص ٨، الوافي بالوفيات: ٢٨/٨.

(٣) مجموع شعره: ص ٢٢.

(٤) م. ن: ص ٣٠.

(٥) أبو الحسن سهل بن مالك ، غرناطي. ذو مواقف مشهورة في الخطابة والوفادة على الملوك . لما ثار محمد ابن يوسف بن هود صار العقد والحل بغرناطة إليه. كان بارعاً في النظم والنثر وافر النصف من

المرية. فشبّه حاله وهو بمرسية بحال شمامة قطفت عن غصنها وأبعدت عن أمها، فلنتأمل قوله:

وحامل طيب لم يطيب بطيبه ولكنّه عند الحقيقة طيب
تألف من أغصان أس زهرة فمن صفته زاهر ورطيب
تعانقت الأغصان فيه كلما التقى حبيب على طول النوى وحبيب
وإن الذي أدناه يعد فراقه إليّ لسر في الوجود عجيب
مناسبة للبين كان انقسابها وكل غريب للغريب نسيب
فبالأمس في أشجاره وبيداره وباليوم في دار الغريب غريب^(١)

وحنّ غيره إلى قرطبة^(٢)، وغيرهم إلى اشبيلية^(٣). وحنّ ابن الأبار إلى بلنسية فما أن غادرها وابتعد عنها حتى تملكته أشواق البعاد، وتأجبت في صدره نيران الحنين. يقول مازجاً بين تلك الأشواق والنيران:

إلى أوطانه حنّ العميد فظل كأنه غصن يمد
ومسقط رأسه ذكر اشتياقاً فذاب فؤاده وهو الحديد
ولو رام السلو أبى عليه معاهد، عهداً الماضي حميد^(٤)

ولا يخفى على ابن الأبار التعبير عن حنينه لموطنه بأعق صور الحنين عند العرب، وهي حنين الإبل إلى أولادها، وهذه الصور تدل على رفاة احساس الشاعر، وشدة تعلقه بموطنه ودياره التي لا يقوى على مفارقتها وأهلها:

إلى الألفين من أهل وداري تأويني اشتياقي وأدباري
وحنّ القلب أعشاراً إليها حنين الوالها من العشائر

=الفقه. قال فيه ابن سعيد: (لو لم تأت غرناطة إلا بهذا الجليل المقدار، لكان حسبها في العلم والجود والرياسة وجميع أنواع الافتخار). ينظر: زاد المسافر: ص ٩٦-٩٧، برنامج شيوخ الرعي: ص ٥٩، اختصار القدر الممل: ص ٦٠-٦٥، المغرب: ١٠٥/٢، الذيل والتكملة: ١٠١/٤.

(١) للذيل والتكملة: ١٠٤/٤.

(٢) ينظر: المغرب: ٣١/٢، نفع الطيب: ٩٥/٢.

(٣) ينظر: نفع للطبيب: ٢٨١/٢ - ٢٨٢. وللمزيد ينظر: الذيل والتكملة: ١٧٢/١ - ١٧٣، ٢/١ - ٢/٢.

الاحاطة: ٢٩٨/٤، النفع: ٣١٥/٣.

(٤) ديوانه: ص ١٧٧. وينظر: ديوان ابن سيل: ص ١٦٦-١٦٨.

فبت كـانـي ، تَوْقاً وَشَوْقاً على مثل الأسنة والشِّفارِ
وما حشَوُ الضلوعِ سوى أوارٍ وما نَوَمَ الجفونِ سوى غرارٍ^(١)

وما كاد الأبار ليسلو عن أيامه التي قضاها في بلنسية أيام شبابه، ولم ينس تلك الطبيعة الخلابة التي عاش في كنفها أبهى الساعات، وأجمل الأوقات:

ما للهوى إلـلـرِصافـة مـأربُ بعد الغدير فكيف يصفو مشربُ
كانـا مـراداً للنعيم ومـورداً إذ كنتُ بينهما أجـيـء وأذهبُ
والإلف للميعاد بي مـترقبُ والدهر بالإسعاد لي مـتقربُ^(٢)

وبمثل هذه الأبيات والقصائد، يكون شعر الحنين لدى ابن الأبار (قرين احسانه بمشاعره الوطنية، ففي شعره نلمس شعوراً صادقاً ومتميزاً، أعطى شعره تلك النبرة الحزينة التي غدتها مرارة الغربة)^(٣).

وشاعرنا الرندي ممن حمل مثل هذه الوطنية الصادقة في حنينه لوطنه، فهو إذا ما اشتاق لرندة^(٤)، أو حن إليها، اشتاق لمن الأندلس كلها، وحن إليها جميعها، كيف لا وهو صاحب النشيد الوطني في رثاء الأندلس ومدنها، التي غطت الأفاق، وملأت الأسماع.. يقول الرندي وهو بمراكش يتشوق إلى الأندلس عموماً، وإلى رندة خاصة:

بـلـغ الأندلس السلام وصف لها ما في من شوقٍ وبعـدٍ وزارٍ
وإذا مررت برندة ذات المني والراح والريموس واللوزارٍ
سلم على تلك الديار وأهلها فالقوم قومي والديار ديارٍ^(٥)

لقد أخرج الرندي أبياته (مخرجاً عاطفياً عميقاً، ودخل إلى موضوع الحنين من باب استحلاف السامع الذي يصل إليه نداء الشاعر بأمر كثيرة تصلح لذلك، وتلفت

(١) ديوانه: ص ١٩٩.

(٢) م. ن: ص ٥٩.

(٣) شعر ابن الأبار - دراسة فنية - ص: ١١٠.

(٤) رندة: مدينة بالأندلس، قيل أنها حصن بين اشبيلية ومالقة. وهي مدينة قديمة وبها آثار كثيرة. ينظر:

معجم البلدان: ٢٧٣/٣، الروض المعطار: ص ٢٦٩.

(٥) مجموع شعره: ص ٧٠٥.

نظره ليحمل عنه رسالة شوق ومحبة وحنين إلى بلده رندة ، التي تستأهل منه تلك اللفتة واللفتة في آن معاً^(١).

أما حازم القرطاجني، فيطلقه صراخاً مدوياً، وينشده نداءً روحياً، عندما يتذكر موطنه الأول مرسية^(٢)، فيهيم بجنة ارضه، ومكان أنسه وأفراحه:

بجَنَّةِ الْأَرْضِ هَمَّتْ يَا صَاحِ فليسَ عَنْهَا الْفَوَادُ بِالصَّاحِ
تلكَ محلُّ النُّهْورِ مُرْسِيَّةٌ موطنُ أنسِي ودارُ أفراحي
مُرسِي، كم ناعِمٍ وكم جَنَلٍ بينَ الرِّياحينَ فيكَ والراحِ^(٣)

تجسد هذه الأبيات (مدى الارتباط الروحي بين الشاعر وبلده فهو يراها جنة وكان مثلياً والمعوض عنها مفقود. ويأتي في الجنس (صاح، صاحي)، ليحمل نغمة تجسد طريقه عند تذكره لموطنه الأول الذي فقده^(٤).

هذا كل شيء عن حنين الشاعر الأندلسي لمدينته ومكانه الأم على عصر الموحدين ، وأما بالنسبة لعصر بني الأحمر فلم يكن ليقصر فيه الشاعر تجاه بلده ودياره على الرغم من مرارة الحوادث ، وانهيار السلطان، وتقشي الفتن وضيق الحقوق، وانتشار الفوضى واختلال الأمن. بل؛ لعلّ هذه الضطرابات زادت شوقه وتوقه لوطنه، وتمنّى لو يعود — مثلما كان — الوطن الأم — الأمل، الأمن والأمان، العزة والرفعة. وفي هذا العصر سيقصر حديثنا في الحنين على مدينة واحدة فقط هي غرناطة ، إذ (عبر الشاعر الأندلسي عن حبه لها لكونها البقية الباقية من الفردوس المفقود، فكان تعبيره فيها ملأً بالعواطف العميقة والمشاعر الصادقة)^(٥). فشاعر وأديب ونحوي كابي حيان، لقي جفوة الزمان، وعاش جور الناس، ودوران الأيام بخطوبها ومصائبها وذل أهلها،

(١) في الألب الأندلسي : (الدالية)، ص ١٣٧-١٣٨.

(٢) مرسية: بالأندلس قاعدة تميز بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم، وهي كثيرة الأشجار والأنهار والمعادن. ينظر: معجم البلدان: ١٠٧/٥، الترويض للمعطار: ص ٥٣٩-٥٤٠.

(٣) قصائد ومقطعات: ص ١١٣، وينظر: ديوانه: ص ٣٦، ص ٤٦.

(٤) الصورة البيانية في شعر حازم القرطاجني: صالح كاظم صكبان، (رسالة ماجستير) كلية التربية في الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٠، ص ١٣٢.

(٥) القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن: ٤١٢/١.

كان من الطبيعي أن يحمل تلك العواطف والمشاعر نحو بلده الأول، فيصفه بـعوطن السعادة ويرسل له التحية، ويدعو له بالسقيا:

أيا معهد الإسعادِ حُيِّتَ معهداً وجادكُ من سكبِ الغمامِ هَتُونُ
فإن تكنْ الأيامُ قد لعبتْ بنا ودارتْ علينا للخطوبِ فنُونُ
فمن عادةِ الأيامِ ذلُّ كرامِها ولكنَّ سبيلُ الصابرينَ مبِينُ^(١)

وهذا أبو الحسن علي بن الصباغ العقيلي (ت ٧٥٨هـ)^(٢)، يصف لوعة النوايا، وعظمة الحزن وهو يحن إلى بلاده، وإلى أيامه السالفة في ربوعه:

لحا الله أيامَ الفراقِ فكسَمَ شجّتْ وغادرتِ الجذلانَ وهُوَ حزينُ
وحيتا دياراً في غرناطة وإني بذاك القربِ فيه ضنينُ
خليلي، لا أمرُّ، باربعِها قفا فعندي إلى تلكَ الربوعِ حنينُ^(٣)

ابن الخطيب الذي كان واحداً من دانت له الدنيا فرفعته، ثم دالت عليه فوضعت، فعاش الغربة بكل معانيها؛ غربة الفكر والأدب، غربة الأصحاب والخلان. غربة الأوضاع السياسية، غربة المكان المعاش، وانتهى به المطاف بقتله بأبشع صور القتل، لم تكن أشعاره لتقف دون أن تصف معاني حنينه وشوقه، بعد أن وصفت معاني رثائه بنفسه، وهجائه لصعبه وكل ما يمت إلى الحزن والكمد بصلة، فيبعده عن غرناطة، ورؤية الحاقدين المناوئين ينعمون بظل السلطان ويتبوأون. وزارته من بعده، ظلت في مخيلته، ودارت بين أشعاره وألفاظه. فأقرط من معاني الفراق والبكاء، وأكثر من الوقوف على معاهد الأحبة، وفي نفسه نفثات الوجد، وحسرات الوصل. هاك قوله في مثل هذه المعاني من مقدمة مدحية:

قفا فاسالاً في ساحةِ الأجدعِ الفردِ معالمَ محتها الغمامُ من بعدِ
وجرتَ عليها الراسياتُ ذبولُها على أنها تزدادُ طيباً على البعدِ
وعوجاً عليها فاسالاً عن أنيسِها وإن كانَ تسألُ المعالمَ لا يجدي
ولكنَّها نفسٌ تجيشُ ونفثةٌ تُورِّحُ من بئٍّ وتطفئُ من وجدي

(١) ديوانه: ص ٤١٠.

(٢) للمزيد عن شعره ينظر: الكتيبة الكامنة: ص ٢٢٨-٢٢٩ الترجمة (٧٩)، الإحاطة: ١٢٢/٤.

(٣) الإحاطة: ١٢٣/٤.

مربعُ آلا في وعهدٍ أحبَّتي سقى الله ذاك العهدَ منسكبَ العهد^(١)

ولم تقتصر هذه المعاني على المقدمة فحسب، بل؛ جاءت في خاتمة قصائده أيضا^(٢)، ولم تكتف بغرض المدح بل؛ جاءت مع الاخوانيات^(٣)، ومع الفخر الشخصي^(٤)، وحتى مجالسه الوعظية، التي كان يعظ فيها الناس، ويرغبهم فيما عند الله، وأنهم غرباء في هذه الدنيا مهما نالوا منها، وحظوا بسعادتها، لم تخل تلك المجالس من ذكر الربوع والشوق إليها، وأن فعل الموت. وفعل البين عن من نحب سياتي لا يختلفان في شيء:

صحبَ بالربعِ فلم يستجيبوا لبتَ شعري أين يمضي الغريبُ
وبجنبِ الدارِ قبرٌ خصيبٌ منه يستقي المكانُ الجديبُ
غابَ قلبي فيه عند التماحي قلتُ هذا القبرُ فيه الحديبُ
لا تسألَ عن رجعتي كيف كانت إن يومَ البينِ يومٌ عصيبُ
باقترابِ الموتِ عللتُ نفسي بعدَ ألفي كلَّ أتٍ قريبُ^(٥)

أما فيما يخص حنين ابن زمرك^(٦)، فكان أغلبه متكلفاً بارداً، نرى عليه آثار التكرار في المعاني والألفاظ، وقد يعود سبب ذلك إلى أنه ارتبط بالمديح، فعالج حنين غيره، ولاسيما بمدوحه الغني بالله إذ كان يمضي أغلب وقته خارج غرناطة في حروبه وغزواته.

وثمة ظاهرة أخرى جديرة بالاهتمام في حنين الشاعر الأندلسي . وهي ظهور أسماء المدن المشرقية في هذا الحنين ولاسيما نجد، واستخدامها كمعبر لمشاعر الشاعر الأندلسي نحو مدينته سواء أكانت غرناطة أم غيرها، ويمكن القول أن هذه الظاهرة

(١) ديوانه: ص ٤٣٥، حدع النبات : قطعة من أعلاه . رمس الشيء: طمس أثره.

(٢) ينظر: م. ن: ص ٥٧٤.

(٣) ينظر: م. ن: ص ٥٩٦-٥٩٧.

(٤) ينظر: م. ن: ص ٥٦٩.

(٥) ديوانه: ص ٣١٦.

(٦) ينظر: ديوانه: ص ٦٩-٧٠، ص ١٠٠، ص ١٠١، ص ١٠٦، ص ١٨٦، ص ٣٢٧، ص ٣٤٤.

ص ٣٥١-٣٥٠.

ظهرت في عصر الموحدين^(١) بادئ الأمر إلا أنها استوت على سوقها ، وأنت أكلها في عصر بني الأحمر . وقد تنبه د. عبده بدوي^(٢) إلى أن نجداً كانت رمزاً للجزيرة العربية، رمزاً للنقاء الأول الذي يخلقه هذا المكان في نفس الإنسان العربي عموماً ، فلا غرو أن يحن إليه في أوقاته الصعبة، وأن يهرب لذكره كلما وجد الفرصة سانحة لهذا الهروب. فابو المطرف بن عميرة المخزومي يرمز لنجد وبعض الامكنة الموروثة لتدل على عظمة حنينه وكبير شوقه لمدينته بلنسية . ولكنه ! ما يلبث ان يتحدث عن رزنها ومصائبها بتصريح وبيان يكتنفهما الاسى واللوعة والالم :

تحنُّ الى نجدٍ وهيَّاتٍ حرَّمتْ صروفُ الليالي ان نعوذُ إلى نجدٍ
ويا جبلَ الرِّيمانِ لاريَّ بعدما عدتْ غيرُ الايامِ عَن ذلكَ الوردِ
امِنَ بعدَ رزءٍ في بلنسيةٍ ثكوى باضلاعنا كالنارِ مضرمةٍ الوقْدِ
الا ليتَ شعري هل لها من مطالعٍ تعادُ إلى ما كانَ فيها مِنَ السعدِ^(٣)

ابن خاتمة يرمز بهذا الحنين إلى نجد حنينه إلى غرناطة في أبيات يصف فيها قلبه بالوجد كلما تذكرها، وجسمه بالاعتلال كلما مرت به نسايم أحبابها:

أحنُّ إلى نجدٍ إذا ذكرتْ نجدُ ويعتادُ قلبي من تذكرها وجدُ
ويعتَلُّ جسمي أن يَهَبَّ نسيْمُها عليلاً له بالآلِ أثَلُ الجِميْ عهدُ
وما مقصدي نجدٌ ولا ذكرُ عهدِها ولكن لجري من غدت دارُ نجدِ^(٤)

(ثم نراه في أبيات أخرى يترك الرمز جانباً ويتوغل في أعماق، وإذ بنجد هي غرناطة ومن حل بنجدهم من حل بغرناطة من الأحبة)^(٥):

يا نسيماً سكرى لأقرب عهدٍ بحماهم حدثني الأخبصارا

(١) ينظر: شعر أبي جعفر بن سعيد : ص ٢١، الإحاطة: ٢٩٨/٤، الديباج المذهب: ٣٧٨/١، نفح الطيب: ٤٧٦/٤.

(٢) ينظر: الغربة المكانيّة: ص ٢١.

(٣) اختصار اللوح المملّى: ص ٤٨، نفح الطيب: ٣٠٨/١، ابوالمطرف احمد بن عميرة المخزومي (حياته واثاره): ص ٢٣١.

(٤) ديوانه: ص ٥٣.

(٥) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: ص ٢٥٠.

كيفَ غرناطةُ ومن حلَّ فيها حبّذا الساكنونَ تلكَ الديارِ
كيفَ أحبّابُ مهجتي روحٌ روحِي نورُ عيني، الجأزرُ الأقمار^(١)

وأما ورودها في شعر ابن زمرك، فهي لم تدلّ على الحنين لا من قريب ولا من بعيد، فقد جاءت في نص^(٢) جواباً على رسالة لأستاذه ابن الخطيب، والنص وإن قبل في بعد مكاني بين الطرفين إلا أن نجداً لم تثر في هذا البعد حنيناً أو شوقاً، فراح شاعرنا يبادل أستاذه الهموم، ويتمنى لو زاره ونعم بقربه.

وفي نص آخر قيل في تهنئة السلطان الغني بالله ببعض المواسم العديدة، ووصف كرائم من جواده، وأثار ملكه وجهاده لم تأت لتدل على الحنين، على الرغم من المهناً كان يمضي جلّ أوقاته خارج مملكته، بل؛ راح يوازن بين نجد وغرناطة وأثار كل منهما على حدة، وربما نسال لم نذكرها في هذا المكان ما دامت لا تعني حنيناً ولا تبغي شوقاً؟ فنجيب أن مطلعها أرغما على ذلك، يقول:

يا مَنْ يحنُّ إلى نجدٍ وناديهما غرناطةٌ قد ثوتَ نجدٌ بواديهما^(٣)

فكان حرياً بابن زمرك أن يأتي بلوحة ولو من أبيات معدودة فيذكر حنين الممدوح — أو المهناً هنا — حتى يسبغ على النص مشاعر الفرح بلقيا الأحباب وبالعودة إلى البلاد. بعد أن جاء بمثل هذا المطلع، وبعد أن بلغت أبيات هذا النص الكلية (١١٥) بيتاً!!

وعن شعر يوسف الثالث — الملك الفارس المقاتل — فما غابت صور الحنين بهذه الرموز المشرقية عن شعره. فهو يذكر نجداً، ويساجلها بدموع وابلة، وأكباد محترقة حتى يصل غرناطة فيودعها أشواقه، ويشكو لها أغترابه:

سقياً لغرناطة والله ما برحت تلقى من البعد في قلبي تباريحاً
ربعٌ إلى ربي الأعلى ملائكة تهديه عنّي تقديساً وتسبيحاً

.....
.....
.....

(١) ديوانه: ص ٦٨.

(٢) ينظر: ديوانه: ص ٢٥-٢٦.

(٣) م. ن: ص ٥٠٠-٥٠١.

طالَ اغترابي عن أهلٍ وعَن وطنٍ وسامني زمني وجداً وتُبرحاً^(١)

وعلينا أن نعلم أن هذه القصائد قد نُظمت في جبل الفتاح، وهو يخوض غمار الوغى، ويقاسي صرعات الحرب، فلا بد أن تكون هذه الأبيات قد نظمت وهي أمام صور الموت المختلفة، ولذا شابتها عاطفة صادقة، ومشاعر مرفقة.

ولم يقتصر حنين يوسف الثالث على ذكر نجد - الطلل الدائم - بل؛ ذكر الزوراء وهو كما نعلم من أسماء بغداد وأراد بها غرناطة في أبيات أتت بعد هذا الذكر من قصيدة قدم لها بقوله: (إننا تذكرنا أيام المقام في ظاهر جبل الفتاح إلى أحبائنا وال حالين بأعز مكان)^(٢)

فيا ساكنَ الزوراءِ هل من تحيةٍ	ولو مثل ما يُهدئُ الصديقَ صديقُ
بعيشكَ حمكها الرياحَ لعلها	تَهَبُ ، ففي طيّ الضلوعِ حريقُ
أنا ذلك المضيبي بحبك كلما	تذوكرَ إلفاً بالودادِ خليلُ
وغرناطة دارُ ألفنا بها	وهب أن مرماها الغداة سَحيقُ
ففيها من الأعلامِ كلُّ مجدٍ	لَهُ نحوَ غاياتِ الكمالِ سيقُ
ألفنا هواهم حيث حلَّ ركبنا	صبوحُ لنا ذاكرهم وغبوقُ ^(٣)

وذكر نجداً شاعره ابن فركون^(٤)، في مقدمة لقصيدة مدحية، وشملت المقدمة ثلاثة عشر بيتاً جمع إليها الطبيعة والغزل التقليدي الذي جارئ فيه الشعراء القدماء حين ذكر عدم اهتمام الحبيبة بقول الوشاة، وصدده بذلك الممدوح الذي ولج إليه بعد المقدمة وذهب في تعداد أفضاله ومحامده ، ووصف شجاعته وبسالته.

وعلى أية حال ؛ سواء أكانت هذه الرموز المشرقية سنة يتبعها أصحاب الحنين المتواتر ، أم كانت بدعة يتبعها أصحاب الحنين الموهوم لارتباطه بسدو حنينهم وأرباب نعمهم ، فإن خيوط التجربة الأدبية فيها ظلت ساطعة منيرة، ووصلت إلينا بصدقها وزيفها، وهي بغض النظر عن كل شيء تبقى تجربة لها ميزاتنا وفيها عيوبها.

(١) ديوانه: ص ٢٩.

(٢) م. ن: ص ١٨٤.

(٣) م. ن: ص ١٨٥.

(٤) ينظر: ديوانه: ص ١٢٩.

٣. الحنين إلى معاهد الصبا ، ومواطن الأهل والخلان والأحباب.. (المكان الذكرى).

هذا حنين من نوع آخر ، إنه حنين إلى تلك المشاعر الدافئة الأخوية التي تربط الشاعر بصحبه وأترابه . وهذا النوع من الحنين وإن كان بعيداً نوعاً ما عن التصريح باسم المكان الذي يفصل بين الشاعر وبين من يحن إليهم، إلا أنه — أي المكان — المثير الفعال لتلك المشاعر ، والدافع الأهم في نظم هذي الأشعار ومادام الشاعر الأندلسي — في هذا الحنين — لم يصرح باسم مكانه على أغلب النصوص التي وردتنا. فإننا نلاحظ في هذا الحنين — أو اثر أحاديث الذكريات وتوجهه إلى ذلك العهد القديم، وتمنى عودته . وهذه الدلالات وغيرها تصب أولاً وآخرأ — في موضوعنا المكان وأثره في البنية الموضوعية الفنية على النص الشعري الأندلسي ، فهذه الدلالات على كثرتها وتعددتها أخذت من بيئة الشاعر ، وواقعه الذي يعيش فيه، فلا عجب أن يكون النص الشعري هو ابن هذي البيئة. والنتيجة الحتمية لهذا الواقع بكل ملابساته وتطوراته.

ومع هذا الواقع المرير، والبيئة المضطربة التي عاشها الشاعر الأندلسي ، انطوى شعره على الكثير من البكاء، والمأسى . وإذا وصلنا إلى هذا النوع من الحنين لم نكد نخرج عما قدمناه — سابقاً — من أن قصائده في هذا المجال قد اتست بالأسى والصادقة ، وازدانت بمعاني الشوق الأصيل التي يعبر عن وفائه لأهله واصدقائه وأخوانه وتشوقه لهم. فالجزار السرقسطي يتمنى لو يعود الشمل ، ويجمع الجمع في ظل تلك الطبيعة وبين ربوع ذلك الوطن:

عسى وطنٌ أودىْ بألفتنا شحطا	يقربنا زلفىْ ويُظهِرنا سيمطا
لأسرع ما أمضىْ التفرقَ سهمه	فأصمىْ فؤاد القرب منا وأخطا
ووصلتكم كانت من الدهر منحة	فما باله اليوم استرد الذي أعطى
ألا ليت شعري هل يرى بعد سأمحا	بعهد تصاب كنت في عقده وسطى

ولكم نلاحظ هذه المشاعر العفوية الصادقة تجاه الخلان والأحباب، أما عن المواطن فما شأنه منكر، وما سمع بها لخطأ، ولو عرفه امرؤ القيس — المشهور ببكائه الأطلال — لما ذكر أطلاله أو بكى عليها :

وأربع عُرِف لم يشنّها بمنكر ولم تسمع الأذان منها بها لفظاً
لو أن امرأ القيس بن حجرٍ يحلّها لا قصر عن أن يذكر الجزع والسقطاً^(١)

وفي قصائد أخرى^(٢)، لم تخرج عن هذه المشاعر، أو عن هذا البكاء نظم شعراء آخرون في هذا العصر — المرابطين — وتدل الإشارة إلى أن أغلب هذه النصوص كانت مقدمات لقصائد في المديح، وأن هذه المقدمات استأثرت بمثل هذا البكاء والصراخ لاستمالة الممدوح وتحريك إيديه.

وعوداً إلى تلك الدلالات التي كانت مصدراً سهماً لمصادر الحنين والتي رست الطبيعة الأندلسية بكل مظاهرها رسماً يستتق مشاعر الشاعر، ويتأخذ رمزاً نفسياً ليندل على حالة لاشعورية تقف خلف استخدامها، لا يتأخر ابن خفاجة في مزج شاعره في الحنين بعلاقاته بأحبائه وأقرانه. ففي قصيدة يتشوق فيها لصديقه أبي العلاء بن زهر (ت ٥٢٥هـ)^(٣) يستدعي فيها ريح الصبا التي تفوح من نبات الرند ليحبر فيها عن نفسه عذبة ملتاعة، لطول البعد، وكثرة الفراق:

وعلى بريء الرند نفساً عذبة مع الصبح يندى أو مع الليل هاديا
وتهفو صبا نجد به طيب نفحة فيلقى صبا نجد بما كان يقيا^(٤)

وكم هو عجيب هذا الحنين، وهذا التواصل الروحي الذي يقول فيه:
أحنّ إليه حنة النيب هجرت وقد ذكرت ماء العضاد صوادي^(٥)

(١) ديوانه: ص ١٦٦-١٦٧.

(٢) ينظر: شعر ابن السيد البطليوسي: ص ١١٢-١١٣، الخريد: ٢١/١٢٠-٢٢، أخبار الملوك، ترجمة المالك والمملوك في طبقات الشعراء: الملك المنصور محمد بن عمر الأيوبي (٦١٧)، تحقيق: .. ناصر رشيد، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ٢٠٠١، ص ١٤٤.

(٣) أبو العلاء بن زهر بن عبد الملك الأبادي، كان قاضياً وطبيباً بارعاً من أهل اشبيلية وأعيانها. ينظر: الذخيرة: ٢٢٠/١/٢، المطرب من أشعار أهل المغرب: ص ٢٠٣، بدائع البدائع: ص ٣١٠، التكملة لكتاب الصلة: ابن الأبار، تحقيق عزت الحسني، مطبعة السعادة - مصر، ١٩٥٥، ٢٣: ١/٢٣، فتح الطيب: ٢٤٦/٣.

(٤) ديوانه: ص ٢٠٠.

(٥) م. ن: ص ٢٠١. العضاء: كل شجر له شوك صغر أو كبير، الواحدة: عضاءة.

وحس في فضاءه التي من ديب لمرارة شقر، لم ينس ابن خفاجة ذكريات خلانه
ومعاهد أصعاده، فانشأت تلك العصاد بالمرارة تلو المرارة، واللوعة خلف اللوعة:
فيا ليت شعري هل لدهري عطفة^(١) فتجمّع أوطاري عليّ وأوطاني
ميادين أوطاري ومعهد نذني ومنشأ تهامي وملعب غزالي
فسقياً لواديههم وإن كنت إتما أبيت لذكره بغلة ظمان^(٢)

وفي قصيدة أخرى يبقى هذا الحنين الجارف في نفس ابن خفاجة على الرغم من
سلو صاحبه عنه، وهو أيضاً يوظف الطبيعة بأشكالها - كالنسيم وصوت الحمام
المزرق - غاية التوظيف، فيأتي بالصورة اللطيفة المعبرة:

ولئن سلوت وما أذاك ناسياً كرم الاخاء فإبني أتشوق
ويهجني نفس النسيم إذا سرى ويشوقني فيك الحمام الأورق
خفقت لذكراك أضلعي فكان لي في كل جانحة جناحاً يخفق
وتماكنتي لوعه مشوبة شوقاً إليك وعبرة تترق^(٣)

(ومن هنا كان ابن خفاجة مشغولاً بدائرتين متشابكتين هما: دائرة المكان ودائرة الزمان.
أما دائرة المكان؛ فإطارها شقر، والأندلس. وأما دائرة الزمان؛ فإطارها بدور حول أيام
الصبا والشباب، وما كان يكون في الشباب من صبوات، وما يكون معها من صدقات
وأصدقاء؟)^(٤)

إذا ما انتقنا إلى العصر الموحد، كانت مشاعر الحنين إلى الأهل والأحباب
والخلان كما هي عليه في عصر المرابطين. ففي كل زمان يلقي المرء أصحاباً يعيش
بينهم أيامه، فيصبيه ما يصيبهم من أشجان وأفراح، ويبكي إذا فقد واحداً منهم. ربح
إذا أجبرته الظروف على تركهم. هذا الرصافي البلسي يشاق لأحد هؤلاء الأصحاب،
ويعتذر إليه لعدم زيارته، فالمنازل بعيدة، والطريق طويل. وهنا نلاحظ تجسداً حقيقياً
للمكان الذي يفصل بين الأخوين - الشاعر وخله -:

وإني وإن كنت الخلي لشقيق^(٥) إليك على بُعد المنازل والقرب

(١) ديوانه: ص ٣٤٥.

(٢) م. ن: ص ٢١٢.

(٣) في الألب الأندلسي: (الدابة): ص ٣٣٥.

خَلَا أَنْ حَالاً لَوْ قُضِيَ بَتَفَرَّغِي إِلَى لَازِمٍ مِنْ حَجِّ مَنْزِلِكَ الرَّحْبِ
لَقَمْتُ لَهُ مَا بَيْنَ أَعْلَامِ رِيَّةٍ وَبَيْنَ جَمِيٍّ وَادِي الْأَشْيَاءِ مِنَ التَّرْبِ
وَبَعْدُ فَلَا يَعْطِشَنَّ أَبَا الْحَسَنِ الْحَيَا بِلَادَكَ وَالتَّفَتَّ عَلَيْكَ حُلَى الْخَضْبِ^(١)

ويرسل ابن زهر الحفيد (ت ٥٩٥هـ) أبياتاً رفيقة من مراكثر يتشوق فيها لولده الصغير الذي تركه في اشبيلية، وهذه الأبيات تبرز أثر البعد المكاني الذي يفصل بين الأب وابنه، وكم هو كبير عامل الشوق الذي يكاد يتعب في رواجه ومجيئه بين الطرفين:

وَلِي وَاحِدٌ مِثْلُ فَرَخِ الْقَطَا صَغِيرٌ تَخَلَّفَ قَلْبِي لَدَيْهِ
نَأْتُ عَنْهُ دَارِي فِيَا وَحْشَتَا لِسَاكِ الْمَشْخِصِ وَذَاكَ الْوَجِيهِ
تَشْتَوِقُنِي وَتَشْتَوِقُهُ فَيَبْكِي عَلَيَّ وَأَبْكِي عَلَيْهِ
لَقَدْ تَعَبَ الشُّوقُ مَا بَيْنَنَا فَمَنْهُ إِلَيَّ وَمَنْنِي إِلَيْهِ^(٢)

والناظر في شعر صفوان بن إدريس المُرسي^(٣) ليرى الكثير من الأخوانيات، وفيها يراجع شاعرنا المُرسي اخوانه الذين بعثوا له بقصائد يراجعهم بمثلها، فيبادلهم حديث الذكريات، ويبكي معهم تلك المنازل التي كانوا يلجئون بأنفسها، ويمرحون بين ربوعها، وعلى الرغم من هذه الوفرة في أدب المراجعات الذي طغى على أخوانيات المُرسي إلا أن عامل الحنين فيها بدا ضعيفاً. خلا مقطوعة راجع بيا الشاعر ابن مرج الكحل، إذ ربما تكون هذه المقطوعة هي الأقرب إلى الحنين، كما أن أثر المكان ظهر فيها — جلياً واضحاً — يقول المُرسي:

يَا قَاطِعَ الْبَيْدِ يَطْوِيهَا وَيَنْشُرُهَا إِلَى الْجَزِيرَةِ يَنْفِضُ بُدْنَ الْعَيْسِ
أَلْتَمَّ بِهَا عَنْ أَخِي حُبٍ وَذِي كَلْفٍ يَدُ الْغُلَا وَالْقَوَافِي وَأَبْنُ إِدْرِيسِ^(٤)

(١) ديوانه: ص ٣٧-٣٨.

(٢) بحوث أندلسية: د. محمد مجيد السعيد، منشورات المجمع العلمي العراقي - بغداد، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص ٦٦.

(٣) ينظر: مجموع شعره: ١٤: ص ١٩٥، ١٩٩، ص ٢٠٣، ٢١١.

(٤) م. ن: ٢٤، ص ١٦٤. وينظر: ديوان العشري: ص ٦٨، المغرب: ٣١٨/٢، فوات الوفيات: ٦٦-٥٦/٣.

وإن أرسل ابن زهر أبياته إلى ولده، فقد جرى الأمر عكس ذلك عند أبي عثمان سعيد بن حكم (ت ٦٨٠)^(١) إذ أرسل أبياته إلى أبويه من المربة، وإن اختلفت الصلات فما اختلفت المشاعر، فبقي الشوق يُعمر الجنان، ويغمي العيون، ويدور على الألسن:

فراقٌ ومالي بالفراق يدان إلى الله مما جرّه الملووان
قضى الله أن احتل بالشرق برهة وإن كان بالغرب القصي مكاني
ففارقه والنفس تائب فراقه وغادرتك والشوق حشو جناتي
لئن كنتما عن ناظري حبيتما فإنكما في خاطري ولساني^(٢)

وفي عصر بني الأحمر؛ ربما نجد أن هذي الصلات الأخوية قد زادت عمقا، وأصبح الشاعر أكثر ارتباطاً وحنيناً بمعاهد خلانه، ومراتب أترابه ولداته. فقد شاهد الشاعر في هذا العصر تغيرات كثيرة، وتطورات عدة، وشمل هذا التعبير النفوس التي خربت، وتملكتها هواجس الحقد والحسد. وما سقوط المدن وانقيار السلطات والفتن الداخلية. إلا أن نزاع النفس الشريرة، وطموحاتها التي لا تقف إلا عند تدمير الآخرين. والسيطرة على ما بحوزتهم. وكى لا نستطرد في هذا الموضوع المؤلم. أسبابه ونتائجه، نعود لنجول بين أخوانيات الغرناطين. ونلمس مدى شوق وحنين بعضهم لبعض. ابن الجياب الذي وردت الأخوانيات في شعره بوفرة كثيرة جداً^(٣)، ما كاد لينسى كوامن الشوق العارم لصديقه أبي القاسم الشريف السبتي، الذي كانت تربطه به صلات حميمة، وعلاقة قوية:

لا يلبث الشوق المبرج لمحبة حتى يمر إليهم ويؤوبا
فتراه خطفة بارق سرعان ما شمل الشمال سناً أضواء جنوبا

- (١) سعيد بن حكم الطبري، حكم منورقة ابتداء من سنة ٦٢١. فحدث حيرته وإحباطه. عنه: ص ٣١٨/٢. مقصد طلاب العلم والشعر. له مطارحات ومراسلات مع أدباء عصره. ينظر: الحلة السراة: ٣١٨/٢. اختصار القدح المملئي: ص ٢٨-٤١، المغرب: ٤٦٩/٢، عنوان الدراية: ص ٢٠٣، الذيل والتكملة: ٢٨/٢٩-٢٩: أبو عثمان سعيد بن حكم صاحب جزيرة منورقة: د. محمد فرج دغيم. حلة جنيح اللغة الأردلي، عمان، ٥٩٤، سنة ٢٤، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠، ص ١١-١٥.
- (٢) اختصار القدح المملئي: ص ٣٨، أبو عثمان سعيد بن حكم صاحب منورقة: ص ٢٣. والمزيد ينظر: شعر ابن جبير: ص ١٠٥، ديوان ابن الجنان: ص ١٠٠، نفع الطيب: ٤/٧٥.
- (٣) ينظر: ابن الجياب الغرناطي (حياته وشعره): ص ٢٩-٢٢٠.

أذكى لهيباً من زفير صاعدي فأنهلاً ماء العين منه صبيبا^(١)

وعلى الرغم من عظمة هذا الشوق ، وأن المناسبة هي أحد الأعياد التي ذكرته تلك الأيام وهاتيك الأوقات. إلا أن ابن الجياب لا يألو جهداً في أن يتحدث عن الغربة التي يعانيها في غياب صديقه، خاتماً قصيدته بالتحية:

بَعْدَ الْمَزَارِ فَلَا تَسْأَلْ عَنْ غُرْبَةٍ قَدْ أَوْحِشْتَ قَلْباً بِهَا مَقْلُوبَا
وَعَلَيْكَ يَا مَعْنَى الْكَمَالِ تَحِيَّةٌ كَالْمَسْكِ قَدْ مَلَأَ الْمَسَالِكَ طِيَا

لقد حفلت أخوانيات ابن الجياب بألفاظ الدعاء والمدح والمحبة . كما جاءت في جانب منها لمواساة أحبائه وتأثره البالغ بما يصيبهم. وكذلك نظم ابن الجياب بعض مراسلاته مع تلميذه ابن الخطيب وفيها يتحدث عن الصداقة المتينة التي تربطه بشيذه. وقد حاول الحساد أن يقطعوا حبل هذه الصداقة ، ولكنهم فشلوا في الحصول على بغيتهم ومرادهم^(٢). وبحفل ابن الجياب بأصدقائه في طهم وترحالهم، في حضورهم وغيبهم ويتحسر على فراقهم إذا حكمت عليهم الأحوال لكي يرحلوا من جبرته. وقد كتب شاعرنا قصيدة يخاطب فيها أبا عبد الله الحسيني^(٣) عندما ضمَّ هذا الخبر بالرحيل. نقتطع منها قوله:

يَا سَيِّدِي يَا نَخْبَةَ الْأَشْرَافِ وَالْوَحْدَ الْمَعْدُودَ بِالْآلَافِ
سِرٌّ فِي ضَمَانِ اللَّهِ مُحَقَّقاً بِمَا تَهْوَى مِنَ الْأَسْعَادِ وَالْإِسْعَافِ
وَإِذَا حَلَلْتَ فَحُلَّ حَيْثُ تَحَلَّيْ فَضْلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ بِإِدِّ خَافِ
قَدْ كُنْتَ جَارَكَ اسْتَضِيءَ بَغْرَةً عَلَوِيَّةً نَبَوِيَّةً الْأَوْصَافِ
وَأَرَى بِوَجْهِكَ وَجْهَ أَحْمَدَ طَالِعاً كَالشَّمْسِ مَا حَيَّةٌ دَجَى الْأَسْلَافِ^(٤)

(١) ابن الجياب الفرناطي (حياته وشعره): ص ٢٣١-٢٣٣.

(٢) ينظر: م. ن: ص ٢٣١-٢٣٣.

(٣) قال عنه د. النقرات (لم نعر له على ترجمة) ابن الجياب (حياته وشعره): ص ٢٠٠. وكذلك نحن.

(٤) ابن الجياب (حياته وشعره): ص ٢٤١، السدف: الظلمة، والليل وسواده.

أما ابن خاتمة^(١)؛ فراح يناشد أحبة قلبه كلهم، ويسأل هل يبلغ المشتاق ما يستلهم يوماً؟ وهو أن يحظى بقربهم، ويصل ما انقطع من حبل مودتهم. في حين يوظف ابن الخطيب لفظة القناد - الشجر الشائك - ليحملها دلالة نفسية تصف ما يلاقيه من عذاب سببه غياب صديقه:

يا أبا الفضل إن تغب عَن سوادِ العينِ ما غبتَ عن سوادِ الفؤادِ
صارَ يومُ السرورِ بعدكَ ليلاً ووثيرُ المهادرِ شوكُ القنادِ^(٢)

(القيمة الفنية للفظ (القناد) في النص كمفردة تراثية تتجلى في مقدرة الشاعر على توظيفها توظيفاً فنياً ينسجم مع حالته النفسية غير المستقرة)^(٣).

ولعبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ) ، قصيدة يبكي فيها الديار التي هجرها ساكنوها، وخلفوه مثقلاً بالهموم يذرف الدموع في ربوعهم ويمني نفسه بنسمة أو طيف يعيد في نفسه الأمل والفرح:

حيّ المعاهدَ كانتَ قبلَ تحييني بواكبِ الدمعِ يروِيها ويظميني
سقتَ جفوني مغاتي الربعِ بعدهمُ فالدفعُ وقفَ على اطلالهِ الجونِ
أحبابنا هل لعهدِ الوصلِ مذكرٌ منكم وهل نسمةٌ عنكم تحييني؟!^(٤)

لقد قال هذا النص - المفعم بالحنين والشوق - حين وصل إلى الاندلس سنة ٧٦٤ للهجرة. وأنضم إلى السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل بن الأحمر (ت ٧٩٣هـ) ملك غرناطة ، ونال إكرامه، ولقي عنده التقدير والاحترام ، وأرسله رسولا إلى ملك قشتالة الأسباني رغبة في الصلح، فأحسن السفارة وعاد إلى غرناطة، وكانت الاحتفالات آنذاك قائمة ابتهاجاً بمولد النبي - عليه الصلاة والسلام - فوجد

(١) ينظر: ديوانه: ص ٥٠.

(٢) ديوانه: ص ٤٤٩.

(٣) الأخوانيات في الشعر الأندلسي من عهد الطوائف حتى أفول الحكم العربي (٢٢-١٩٠٨هـ): عباس أحمد الحنين، (الطروحة دكتوراه) كلية الآداب في جامعة بغداد ٢٠٠١. ص ١٨٧.

(٤) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً: عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: محمد بن ناوي الطنحسي، القاهرة، ١٩٥١، ص ٨٥.

الفرصة طيبة للمشاركة في مثل هذه التظاهرة الشعرية^(١)، ووجد في هذه الذكرى متنفسا عن همومه، وشكواه. فعلى شاكله أبياته الأولى من الأسلوب السهل، والديباجة الواضحة (يخاطب أهل نجد، ويعد ديارهم جنة الفردوس وهم عينها، يصبو إليهم، ويهنؤ قلبه للقائهم)^(٢):

يا أهلَ نجدٍ ما نجدٌ وساكنها حسناً سوى جنة الفردوس والعين
أعندكم أنسي ما مرّ ذكركم إلا انتنيت كأن الراح تثنيني
أصبو إلى البرق من أنحاء أرضكم شوقاً ولولاكم ما كان يصبيني^(٣)

ويتعرض في قصيدته إلى أولئك الذين جفوه وأضاعوه في المغرب حتى اضطر إلى الرحيل عنهم، ومفارقة ديارهم، فكان هذا الرحيل خيراً واحساناً، لأنه أوى إلى حرم، آمن، وأناس خيرين يعرفون حقه، ويحفظون مكانته:

من مبلغ عني الصحب الأولى تركوا ودي وضاع حماهم إذ أضاعوني
أني أوديت من العليا إلى حرم كادت مغانيه بالبشرى تحييني
وأنتي ظاعناً لم ألق بعد هم دهرأ أشاكي ولا خصماً يشاكيني^(٤)

ولم تكن صورة البرق التي جاءت بها أبيات ابن خلدون راسمة حنيئة وشوقه جديدة في شعر أهل الأندلس، فمن قبله أودعتها حفصة الركونية أبياتها التي تبدو (أكثر عمقاً وأكثر دقة في التصوير، فهي تشخص ذلك البرق وتطلب من الآخرين أن يسألوه إن كان باقياً على تذكيرها بأحبائها أم تقاعس عن مهمته)^(٥)، تقول:

(١) ينظر: التعريف بابن خلدون ورحلته: ص ٨٥، الإحاطة: ٥١٤/٣، نفح الطيب: ١٨٩/٦.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون شاعراً: د. ناظم رشيد، بحث في كتاب: (قطوف داند. مهداة للدكتور ناصر الدين الأسدي، بيروت، ١٩٩٧، ص ١٤٢٣.

(٣) التعريف بابن خلدون ورحلته: ص ٨٦، عبد الرحمن بن خلدون شاعراً: ص ١٤٢.

(٤) التعريف بابن خلدون ورحلته: ص ٨٧، عبد الرحمن بن خلدون شاعراً: ص ١٤٢-١٤٣.

(٥) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: ص ٣٣٣.

سلوا البرق الخفاق والليل ساكن
لعمري لقد أهدئ لقلبي خفقة
أظلل بأحبابي يذكّرني وهناً!!
وأمطر عن منهل عارضه الجفنا^(١)

إن جمال الصورة وبراعتها تكمن في لحظة سطوع هذا البرق في ذلك الليل الساكن الصافي، فهو - البرق - يوحى بالتأمل، ويهيج الذكرى لاسيما تجاه ماضٍ فقد، وأحبة هجروا: ومكان اندرس. فالبرق بضوئه الخافت اللامع شق هذا السكون الكوني. وزاد في خفقات قلب شاعرتنا حنيناً وتوقاً لذلك الماضي، وأولئك الأحباب وذلك المكان.

وجاء بعد حفصة وابن خلدون يوسف الثالث ليستغل صورة البرق وما يثيره من حنين ليودعها شعره. الذي كثرت فيه سمات الحنين بصورة عامة. وفي صورة يوسف التي سنعرضها تترك المكان حرية كبيرة، وتأخذ مساحة أوسع من أبيات حفصة السالفة، فلنستمع قوله:

ومما أهاج الوجد مني والبكا
تعرض من دون المصلى ودونه
مجال لا يدي الناعجات فسيح
يسل عليها للبروق فصيح
فمن بين هاو قد تكدّر واختفى
وأخر خفاق الفؤاد جريح^(٢)

أن الأبيات تبحث في معنى آخر، وتتمحور ودلالة أخرى لذلك الوميض، فإن كانت أبيات حفصة أكثر عمقا ودقة في التصوير لأنها تناشد حبيبها الذي فقدته وقتلته أيدي الواشين (!) فإن الحنين الذي تفوح منه أبيات يوسف الثالث أكبر عاطفة. وأكثر صدقا. فالوميض أثار مشاعر الملك المضام، وأبكى وجدانه وفؤاده، وأثار أيضاً تلك الذكرى المريرة التي فقد بسببها ملكه صغيراً، وبكاه كبيراً وهو الفارس البطل الشجاع الجديد بالملك والسلطة ...

وفي أبيات يوسف الثالث نلمح أثر الشكوى والأسى الذي أثارته صورة ذلك الوميض. فقد شملت تلك الشكوى وتجاوز ذلك الأسى إلى أكثر من بيتين وأكثر من اللوحة التي مثلنا بها، فجاء بقصيدة كاملة، ليتكلم عن وحشة الليل وظلمته التي تشير

(١) المغرب: ١٣٩/٢، نوح الطيب: ١٧٦/٤، الشعر النضوي في الأندلس: ص ١٠٣، الشعر النضوي الأندلسي

(أغراضه وخصائصه الفنية): ص ١٧٤.

(٢) ديوانه: ص ٢٧.

الشجن، وتجلب الوحدة وتبكي الذكريات الماضية: رجع كل هذه الشاعر فإن شاعرنا لا ينسى أن يتفاعل بالمستقبل. وأن يبدد ظلام ذلك الليل، وتلك الوحشة والغربة منيما طالبت وكبرت. يقول:

فإن يك ليلُ الهجر ليسَ بمنقضٍ فلوصلِ وجهُ بالصباح صبيح^(١)

ولم تكتفِ الدلالات الرمزية لمظاهر الطبيعة للتعبير عن مشاعر الحنين، ولم يكتفِ الشاعر الأندلسي بأحاديث الماضي والذكريات لاستذكار تلك الأماكن. واستقصى أيضا أسماء الأطلال والدورس التي كانت تعبر عن شئو تلك المدن وأهلها. وذكر الأطلال من الحنين عند الشاعر العربي عموما والأندلسي خصوصا^(٢). فما ذكر امرئ القيس والجزع والسقط ونجد والحمى... وغير ذلك من المفردات التراثية إلا لتتقل من واقعها التاريخي ورمزها الأدبي لتصبح ذات بعد وجداني يربط الشاعر الشاعر الأندلسي الذاتية وتعبر عن واقعه المعاش. ويثير يوسف الثالث مثل هذه الرمزية التراثية لهذه الأسماء، وبين ما تشير إليه:

أسماء تزيّد العاشقين تحييراً قد اتفقت معنى كما اختلفت أسما وهل هذه الأسماء إلا إشارة لمستفهم في شأنها يحسن الفهم^(٣)

(قالشاعر الأندلسي عندما يذكر "الرسوم والأطلال" عند مخاطبة من يميز عليه من الاخوان والأصدقاء فهو لا يعني تلك الشواخص الجاهلية بعينها، وإنما يعني بذلك ذكرياته لأيام انقضت، وقد تركت في وجدانه ما يتركه الأطلال من أثر في نفس صاحبه الجاهلي. وهذا في حد ذاته يعد شكلا من أشكال توظيف التراث في الشعر، بحيث تصبح الحالة التراثية حالة محاصرة يعيشها الشاعر)^(٤).

بعد كل ما قدمناه في شعر الحنين وما جلبناه من قصائد عبرت عن أحوال منشئها في ظروف صعبة، وأوقات حرجة، فجاءت قصائدهم قطعة من أكباد وقلوب

(١) ديوانه: ص ٢٧.

(٢) ينظر: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: ص ٢٠٧.

(٣) ديوانه: ص ١٦٦. وينظر: زاد المسافر: ص ٩٥، أعلام مالقة: ص ٩٠-١٠٠، ديوان ابن الخطيب:

ص ٤٠١-٤٠٢، الأحاطة: ٣/٣٦٦-٣٧٤

(٤) الأخوانيات في الشعر الأندلسي: ص ١٨٩.

تحنرق شوقاً لبلدانهم وأهلهم. لنا وقفة مع الدكتورة سلمى الجبوسي التي درست الأدب الأندلسي، شعره ونثره، شعراءه وشاعبيه، موضوعاته وأغراضه، وخرجت بالقول من دراستها لغرض الحنين: (وربما كان أهم جنوح للشعر الأندلسي عن مسار الشعر في المشرق هو ضعف عنصر الحنين فيه بالنسبة إلى الشعر المشرقي. ويتضح هذا النقص حتى عند شارع شديد التعلق بالقديم مثل ابن هاني^(١)). ولا أدري ما الذي يربط الحنين بالقديم؟ ولا أفهم ما علاقة ابن هاني بهذا القديم. هل لأن ألفاظه بدوية؟ وصوره جاهلية؟ والبنى التركيبية في بعض قصائده جرت على النمط الجاهلي القديم؟ فأين ذهبت نزعة الشعبية وشدة محاكاته لألفاظ وأحكام هذا المذهب في شعره؟ وأين القديم من شعاع عاش في القرن الرابع الهجري وفي بيئة مختلفة تمام الاختلاف عن كل ما يمت إلى القديم بصلة — في الدين والتاريخ والأدب —؟ إن مدائحه الطوال هي التي فرضت عليه مثل تلك الألفاظ والصور والبنى، فمن البداهة أن يلجأ الشاعر المذاح — في أي عصر ومصر — لغزليات امرئ القيس، وحوليات زهير بن أبي سلمى. واعتذاريات النابغة. ومدائح الأعشى. فما دامت قصائده طويلة فستحاكي لوحات عدة، ومقاطيع كثر في: الطلل والغزل. والرحلة نحو الممدوح.. وهلم جرا.

ثم قالت الدكتورة الفاضلة إن طبيعة الحنين في الشعر العربي طبيعة تراثية انحدرت إليه من الجاهلية ومن حياة الإنسان المتنقل في الصحراء بحثاً عن الاستقرار والكلاء، وأن هذا الترحال والتنقل هو الذي يفرض على المرء الحنين، ويبعث فيه الشوق^(٢). وللرد على هكذا تصريح يمكن القول:

أ — إن الحنين مرتبط بالمكان أصلاً، ولا علاقة للزمان بشيء إلا بمقدار ما يتعلق بالمكان. وهذا لا حاجة لي أن أسوق آراء باحثي ودارسي الأدب، أو آراء بلحني ودارسي علوم الاختصاصات الأخرى المتعلقة بالأدب وبالنص الشعري كعلم النفس، وعلم الاجتماع وغيرهما، فالمسألة واضحة وضوح الشمس في النهار.

ب — هل تريد الباحثة الكريمة لشاعر مترف متحضر كالشاعر الأندلسي أن يهجر بلده للمترف المتحضر ويسكن الصحراء حتى يشعر بلوعة الحنين وألم الفراق؟

(١) الشعر الأندلسي — العصر الذهبي — : ضمن بحوث (الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس): ١/٨٧٧.

(٢) في الصفحة ٥٢٤ من البحث نفسه! كررت الدكتورة الجبوسي موضوع الصحراء وهي تتحدث عن شعر الطبيعة في الأندلس، زاعمة أن هذا الشعر على وفرته لا يتصل بالتراث، ولا يصل إلى جمال الصحراء، وعلاقتها بالإنسان البدوي في العصر الجاهلي^(٣).

أو أن يترك موطنه الغني بالمياه والخيرات لينتقل باحثاً عن الماء والكلا فيشعر بكيفية الاستقرار والأمان؟ ومن ثم يحس بمعاناة البعد لأهله ووطنه؟؟!!

جـ - وإذا آمنا أن الحنين نزعة زمانية ، ارتبطت بوقت معين أو لآ ثم في مكان معين ثانياً، وأقصد هنا ما ارادته الباحثة في كلامها (الجاهلية والصحراء) . أقول : لم قصرت الباحثة الزمن على الجاهلية - المدة التي سبقت الإسلام؟ فإذا كانت المسألة متعلقة بالزمن فالحنين بدأ منذ سيدنا آدم - عليه السلام - عندما أخرج من الجنة. وما نفعه اليوم من عبادات وأعمال صالحة إلا لنعود لتلك الجنان، وذلك النعيم، فهو مقامنا الأخير، وفيه حياتنا السرمدية الباقية.

إن كل ما طرحناه - شعراً وأراء - لا يخرج عن فكرة جوهرية مفادها أن شعر الحنين يدل - أولاً وأخراً - على تعلق الشاعر - الأندلسي وغيره - بموطنه ودياره، وليس هذا التعلق مرتبطاً بآبن هاني ، أو حكرأ على القديم سن الشعر. فكل مكان خصائصه وحوادثه ، وهذه الخصائص والحوادث هي التي تتحكم في مشاعر ساكنيه، فرحاً وحزناً وألماً وشوقاً وبكاءً ورفضاً.

المبحث الثالث: البكاء والندب.

لا أعلم فيما أعلم أن بلاداً أحاطت بها الرعاية والعناية مثل بلاد الأندلس، من حيث الاهتمام بها من مناحي الحياة المختلفة. لما أسبغ الله - سبحانه - عليها من أسباب الثراء والنعيم والترف، ولما منحها من مظاهر الجمال والطبيعة الساحرة، التي تبهج القلوب، وتسحر العيون، ولذا؛ كان فقد هكذا مكان يمثل هاته الأسباب والمظاهر فقداً مؤلماً على قلوب أهله وأبنائه في حقبيهم المختلفة.

وبهذا فقد برز لون جديد من الرثاء في الشعر العربي. ذلكم هو فن رثاء المدن والممالك الذي ارتبط ظهوره برثاء المدن الأندلسية، إذ (طُبع هذا اللون من الشعر بطابع أندلسي خاص. فقد أبرز معالم الشخصية الأندلسية وتفوق على شعر الرثاء بصورة عامة، وعلى قصائد رثاء المدن والممالك في المشرق بصورة خاصة)^(١). وقبل أن نستعرض في عرض النصوص الشعرية التي يبدو فيها شاعرنا الأندلسي باكياً متحسراً لفقدان وطنه - وهي للأسف كثيرة جداً - سنحاول أن نجمل بعض صفات وميزات هذا اللون من الرثاء، جامعين بين آراء الباحثين الذين سبقونا في هذا المجال معنيين بموضوعنا المكان، وما يخصه من تلك الصفات والمميزات.

وأهم تلك الصفات والخصائص كما رأها أولئك الباحثون والدارسون:

- ١ - شدة العاطفة، وصدق الإحساس الذي اعتلى تلك القاصد التي قيلت في رثاء المدن الأندلسية، ولاسيما العاطفة الدينية الممزوجة بالنواحي الإنسانية^(٢). وقد استطاع التأريخ أن يخلد عدة قصائد بسبب صدقها وقوة عاطفة قائلها الدينية^(٣).
- ٢ - ارتباط هذا الرثاء بغرضين آخرين، هما: الحنين إلى تلك الديار والمواطن والاستجداء وطلب الاستغاثة لها^(٤). ففيما يخص الغرض الأول فقد (بكى الشعراء مدنهم وندبوها وحنوا إليها ووقفوا على أطلالها في شعر حزين مبلّ. فأدخلوا بذلك إلى هذا النمط الشعري حنينهم إلى الأرض والأهل)^(٥).

(١) الأدب الأندلسي: (د. منجد)، ص ٣٠٤.

(٢) ينظر: في الأدب الأندلسي: (اللقي)، ص ٢٨، الادب الأندلسي - موضوعاته وفنونه - ص ٥٦١، الشعر

في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: ص ٣١٦.

(٣) مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص ١١٢.

(٤) ينظر: الأدب الأندلسي - موضوعاته وفنونه - ص ٥٦١.

(٥) مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص ١٠٧.

وأما فيما يتعلق بالغرض الآخر؛ فقد علا (استصراخ الشاعر وطلبه النجدة من المسلمين في ديار الإسلام بالمجاهد إلى النصر أو إلى الجنة، وكان الاستتجاد يأخذ أشكالاً شتى، يكون أحياناً بالمديح والتوريط، وأحياناً أخرى بالتعنيف والتقريع، وأحياناً ثالثة بالدعوة إلى الجهاد الديني)^(١).

٣ - شملت قصائد الرثاء نقداً لازعاً للأوضاع السياسية المتردية والأحوال الاجتماعية المتهالكة، بحيث نستطيع القول: (أن خيوط النقد السياسي أو الاجتماعي تشابكت في نسيج هذا الرثاء، وتوحدت في لحمتها وسداها، إذ يندر أن تأتي قصيدة رثائية لمدينة أو مملكة خالية من النقد، الذي هو صورة من صور تحليل النكبة أو الخسارة)^(٢).

٤ - التعصب للمدينة وليس للوطن كله. فمتلما برز الحنين والشوق لمدينة الشاعر الأندلسي، ومن قبلهما نشأت الغربة لمفارقتها. وقف هنا ليرثيها ويصف ما حلّ بها. وقد عدّ د. يوسف الطويل أن هذا التعصب هو المأخذ الوحيد على شعر الرثاء في الأندلس إذ (اختصت كل مدينة منكوبة بشاعرها الذي عاش في كنفها، ونادراً ما عسى شاعر مدينة غير مدينته)^(٣). وقد لا نوافق الدكتور الطويل في نقده لهذه الخصوصية فقد (أحبّ الشاعر العربي مدينته، وعاملها معاملة الإنسان حبيبته، فمدحها ووصفها وفخر بها، وعاتبها ورثاها، بل؛ وحتى هجاها. ولا تخفى الصلة الحميمة والمودة الصادقة بين الإنسان ومدينته وبلده وبيئته)^(٤).

٥ - الصديق الشعوري (الألفاظ والمعاني) إذ غلبت الروح الفلسفية على ألفاظ ومعاني هذه القصائد، بحيث تجلّى ذلك كله في شعر الحكمة الذي لازم هذا الغرض الشعري في معظم نماذجه. وغدا من أهم خصائص رثا المدن في الأدب الأندلسي^(٥).

(١) الأدب الأندلسي - موضوعاته وفنونه - ص ٥٦١. وينظر: في الأدب الأندلسي (النقي): ص ١٥٨.

الشعر في عهد المرابطين والموحدين: ص ٣٠٩.

(٢) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي: ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٣) مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص ١١٢.

(٤) رثاء غير الإنسان في الشعر العباسي: عبد الله عبد الرحيم السوداني، الإمارات، المجمع الثقافي - أبو ظبي، ١٩٩٩، ص ٢٥.

(٥) ينظر: ملامح الشعر الأندلسي: ص ٣٢١.

وإذا كانت القاعدة النقدية تقول: (إذا أراد الشاعر أن يبكيها فعليه أن يحكي أولاً)^(١). فإن الشعراء الأندلسيين في مرحلة سقوط المدن بكوا صادقين فتركوا وراء ظهورهم شعرا يثير الشجى والألم في نفس كل من يقرأه أو يسمع به، فلنستمع إلى هذا الشعر متأملين خاشعين، متعظين.

ابن خفاجة يذرف الدمع على ما أصاب بلنسية من حراب ودمار بعد احراقها:
عائتُ بساحتك العدا يا دارٌ ومحا محاسنك البلى والنارُ
أرضٌ تقاذفت الخطوبُ باهلها وتمخضت بخرابها الأقدارُ^(٢)

ويبلغ التحسر مداه حينما يشعر أبو القاسم السهيلي الأعمى (ت ٥٨١هـ)^(٣)، أن وطنه - وادي سهيل - قد سلب منه إلى غير رجعة، بعد أن دخله النصراني فخر بهوه وعاثوا فيه فسادا:

يا دارُ أين البيض والآرامُ أم أين جيران علي كرامُ
دارُ المحب من المنازل آيةٌ حيا فلم يرجع إليه سلامُ
أخرسن أم بعد المدى فنسينه أم غال من كان المجيب حمامُ
ومعي شهيدي أنني لم أنسهم إن السلو على المحب حرامُ^(٤)

ويبدو أن الشاعر لم يجد وسيلة لسلواه في مصابه وعزاه في نكبته إلا التوجه إلى الله متضرعا، (فقال أبيات الفرج المشهورة)^(٥):

يا من يرى ما في الضمير ويسمعُ أنت المَعْدُ لكل ما يتوقَّعُ

(١) الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري: ص ١٩٢.

(٢) ديوانه: ص ٣٥٤.

(٣) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ بن الحسين.. الإمام الحبر أبو القاسم . وابو زيد السهيلي الأندلسي المالقي الحافظ صاحب المصنفات . استدعى إلى مراكش وحلّى بها وولى قضاء الجماعة وحسنت سيرته أصله من قرية بوادي سهيل من كورة مالقة. ينظر: زاد المسافر : ص ١٣٨-١٤٠. المطبوع من أشعار أهل المغرب: ص ٢٣٠-٢٣٩، أدباء مالقة: ص ٢٥٢-٢٥٨، وفيات الأعيان: ١٤٢/٣، نكت الهميان في نكت العميان: الصفدي، تحقيق: أحمد زكي بك، القاهرة، ١٩١١، ص ١٨٧-١٨٨، الاحاطة: ٤٧٧/٣-٤٨١، مختارات من الشعر العربي والأندلسي : ص ٧٦-٧٧، نفح الطيب: ٧٦/٥-٧٧.

(٤) المغرب في حلّى المغرب: ٤٤٨/١، نكت الهميان: ص ١٨٨. وقد اعتمدنا رواية النكت.

(٥) الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي: ١٤٦/١.

يَا مَنْ يُزْجِي لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمُشْتَكَى وَالْمَفْزَعُ^(١)

وتصل الفاجعة ذروتها عند ابن الجنان المُرسي إذ يفقد أباه فيرثيه، ويمزج هذا الرثاء العاطفي الحار، برثاء مسقط رأسه ومرتع صباه، مدينته مرسية . هك قوله:

وَيَا لِمَرْسِيَةِ الْغُرَاءِ مِنْ بَلَدٍ أَضْحَىٰ مِنْيراً وَأَمْسَىٰ نَوْرَهُ حُسْبَاً
وَيَا لَجَمَالِهَا الْأَعْلَىٰ لَقَدْ وَضَعَتْ مِنْهُ مَجَاوِرَةَ التَّثْلِيثِ مَا شُرِفَا
إِذْ كُنْتُ أَشْهَدُ أَطْرَافَ النَّهَارِ بِهِ مَعَ الْمَصْلَىٰ وَلَيْلًا أَشْهَدُ الزُّلْفَا
جَاوَرْتُ مِنْهُ جَمَاناً كَانَ مَجْتَمِعاً لِبَهْجَةِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَمُؤْتَلَفَا^(٢)

وربما أسودت الدنيا في عين الشاعر الأندلسي بعد سقوط مدنه. وتبدل أهلها، ومحي دينها، وهتك عفافها، ورافق ذلك مصائبه الاجتماعية واضطهاده الثقافي والديني، في زمن قل فيه الناصح الأمين، ونذر فيه القائد الأسوة فعم الطغيان وكثرت الويلات، ويحسن ابن الخطيب تأريخ هذا الأوضاع فيطلعنا على الأحداث من قرب ببصيرة وحكمة:

وَبَانَ فِي الْأَنْدَلُسِ الْفَسَادُ وَانْتَثَرَتْ مِنْ ضَعْفِهَا الْبِلَادُ
وَأَخَذَتْ أَمَانَهَا النَّصَارَىٰ وَأَصْبَحَ النَّاسُ بِهَا حَيَارَىٰ
تَرَاهُمْ مِنْ هَوْلِهَا سَكَارَىٰ قَدْ أَشْعَلَ الرُّوعَ بِهَا الْأَفْكَارُ^(٣)

وطالت المراثي اشبيلية كغيرها من المدن التي وقت تحت محاصرة النصاري، ومن ثم في أيديهم ، فأبو هارون موسى بن موسى (المنة السابعة) يضع بين أيدينا نصلاً شعرياً يتحدث فيها عن مصاب المسلمين في اشبيلية وشدة المحنة التي تدور عليهم. وهذا النص وإن بدأ بصرخات الاستغاثة والاستجداء إلا أن (الروح السائدة فيه هي

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب : العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ)، دار المسيرة - بيروت ١٩٧٩: ٢٧١/٤.

(٢) ديوانه: ص ١٢١، والأبيات بتصرف.

(٣) شرح رقم الحل في نظم الدول: ص ٣٠٢.

الحزن واللوعة والبكاء بنكبة المسلمين في مدينتهم ، والاستسلام بقضاء الله وقدره فيها^(١):

يا سائلي عن مصابٍ المسلمين بِـها أصحُّ لتسمعَ أمراً يورثُ الصمما
لما تفرقتِ الأهواءُ وأضطربتْ نارُ البغاةِ فقامتْ للردى علما
يا حسرةَ الدينِ والدنيا لأندلسٍ مَهما استطالَ بِها التثليثُ وأجترما^(٢)

أما أبو المطرف ابن عميرة المخزومي، فعلى الرغم من أن شعره يمثل الاتجاه السلبي اليأس ، الذي لا يرى في المقاومة نفعاً ولا جدوى^(٣)، فإنه بقي يرصد القضية الأندلسية ويعبر عن ما حدث في الأندلس، وما حل بها ، يقول فيه د. محمد بن شريفة: (وتدلنا آثاره الشعرية والنثرية على عنصر مهم من عناصر شخصيته ألا وهو عاطفته الوطنية القوية، وقد اشتهر الأندلسيون على العموم بشعورهم الوطني لذلك نجد باب الشعر الوطني من أغزر الأبواب في الأدب الأندلسي)^(٤)، فإن كانت هذه الآثار تعنى بالبكاء على المدن، والحنين إلى المعاهد والديار والوقوف على الأطلال ، فهي ليست مثلبة عليه، أو منقصة في أدبه، فالشاعر يعبر عن عاطفته على وفق ما يراه مؤثراً في المتلقي، بحيث يشركه قدر الامكان في تجربته التي عاشها ويجعله يحس بها. وأما أن المخزومي قد فقد الثقة في المستقبل، واستولى عليه اليأس ولم يعد ينظر إلى الأفق بتفاؤل وأمل كما يرى الأستاذ الطرايسي^(٥)، فما ذلك إلا لفقده المكان – المدينة – الذي كان يمثل بالنسبة له الماضي والحاضر والمستقبل، فعاش الغربة وعانى الحنين فبدأ يبكي ويتحسر ويتألم ، وما انتهى ذاك البكاء المرير، والدمع المدلل لطيلة حياته.

(١) الأدب الأندلسي: (د. منجد) ، ص ٣٢٧.

(٢) البيان المغرب: ٣٨٢/٣ – ٣٨٥.

(٣) ينظر: الأصوات النضالية والانهازية في الشعر الأندلسي: ص ١٦٠.

(٤) أبو المطرف بن عميرة – حياته و آثاره – ص ١٦٧.

(٥) ينظر: الأصوات النضالية والانهازية في الشعر الأندلسي: ص ١٦٣.

الذات الشاعرة

الحياة القلقة المضطربة
↓
بكاء الأهل والأحباب
↓
الذكريات وأحاديث الصبا

الضياع (المستقبل)
↑
الغربة (الحاضر)
↑
حنين وشوق (الماضي)

المكان المفقود

(خطاطة ترسم أثر المكان المفقود على الذات الشاعرة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها).

يقول أبو المظفر في شعر يبكي الرزء ببلنسية، وقد غلب عليه الشكوى والحنين، وتذكر تلك الربوع الجميلة التي كان معتادا على ارتيادها لقضاء أحلى الأوقات وأمتعها:

ألا أيُّها القلبُ المصْرَحُ بالوجدِ أمالكُ من بادي الصبابةِ من بُدِّ؟
وهل من سلوٍ يُرجى لمتيِّمٍ له لوعةُ الصادي وروعةُ ذي الصدرِ
يحنُّ إلى نجدٍ ، وهيأت حُرمت صروف الليلي أن يعودَ إلى نجدِ
أمن بعد رزءٍ في بلنسية ثَوِي باحنائنا كالنارِ مضرمةِ الوقْدِ
يُرجى أناسُ جنَّةٍ في مصائبٍ تطاعنُ فيهم بالمتفكِّةِ المُنْدِ
ألا ليت شعري هل لها من مطالعٍ معادٍ إلى ما كانَ فيها من السعدِ
وهل أذنبُ الأنباءِ ذنبُ أيِّهم فصاروا إلى الإخراجِ من جنَّةِ الخلدِ^(١)

ويمضي في هذا البكاء الذي لا يتوقف، وهذه الظلمة التي لا تبدد:

ما بال دمعك لا ينِي مدراره أم لقلبك لا يقِرُّ قراره؟
اللوعة بين الضلوع لظاعنٍ سارت ركائبه وشطَّت داره^(٢)

(١) اختصار القح المولى: ص ٤٨، نفع الطيب: ٣٠٥/١-٣٠٦.

(٢) المقتضب من كتاب تحفة القادم: ص ٢٠١، الروض المعطار: ص ٩٩-١٠٠.

وفي هذا البكاء يكثر من ذكر الأماكن والأربع والأطلال، ويُنَبِّئُ بأسى سرير
حينما يذكر العصور الماضية والذكريات الجميلة التي كانت تجمع الشمل. ونضم
الأحباب في تلك الأماكن:

وعادَ قلبي من شرقِ أندلسٍ عيْدُ أسَى فتَّهْ وما فُتِّرْ
فأينَ منّا منازلُ عصفرتِ ريحٌ عليها مِنَ العدا صُرْصُرْ
ودونَ سُقْرِ ودونَ زرقَتِه أزرقُ يحكى قنَاداً أو أشْـقَرُ^(١)

فكيف تُحْيِي الأنام من ذاكرته ؟ وكيف تُنْسِي الأمسيات والليل، وقد كانت من الحال
والروعة بمثل قوله:

ليالٍ بماءِ الوردِ ينضجُ ثوبُها وطيبُ هواءٍ فيه مسكٌ وعنبرُ
وبالحيلِ الأندلسُ هناكَ خطى لنا إلى اللّـهُو لا تكبِسوا ولا تتعشّرْ
جَنَابٌ بأعلاهْ بهارٌ ونرجسٌ فأبيضُ مَفْتَرُ النَّايِسا وأصفرُ^(٢)

وله قصائد أخرى ينحو فيها هذا النحو^(٣)، في لغة شجية رقيقة، وأسلوب حزين يعبر
عن مشاعر الماكبة المفجعة الأليمة

وحتماً أن يدور ابن الأبار في فلك الباكين على وطنهم والمتحززين على مفده.
وقد كان المستجد الأول، والمستصرخ الأهم بين شعراء الأندلس عموماً، فإذا ما أحسَّ
بمسارته وضباعه راح يندبه ويكيه بقصائد أرق من تلك التي رأيناها في شعر
الاستنجد ، وأعلى عاطفة منها، كقوله:

وطَنَ على الدائبينِ: الدمعِ والشَّجِنِ يا نادِبَ الذاهبينِ: الأهلِ والوطنِ
وأسكنَ إلى الصبرِ في المامِها نُوباً أودتْ على عقبِ المسكونِ بالسكنِ
كزعزعِ الريحِ صكَّ الدوحِ عاصِفُها فلمْ يدعْ من جنّتي فيه ولا غُصْنِ
ومعرة أنا فيها قلتُ لا بطلَ فلا تخلنّى خلياً من جوئِ الحزنِ
هذا فؤادي كالبرقِ الخفوقِ أسى وهذي أدمعي كالعارضِ الهتنِ

(١) الروض المعمار: ص ٣٥٠، أبو المطرف بن عميرة - حياته واثاره - ص ٣٢٢.

(٢) نفح الطيب: ٩٣/٤ - ٩٥.

(٣) ينظر: تحفة القادِم: ص ٢٠٩-٢١٣، اختصار القدح المملُ: ص ٤٤، النبل والتكلمة: ١٧٣/١ - نبح:

٣١٧-٣١٦/١.

براحتني رايةُ الأشجانِ أحملُها وإنْ غداَ الجسمُ وهناَ ليسَ يحملني^(١)

وهو كصديقه - المخزومي - ما فارقتَه صورة تلك الذكريات التي قضاها في بنسية، فيبكي اندثارها، ويحن إليها، فتجري به الدموع ، وتزداد في نفسه مرارة الحزن:

كلما هبتِ الصبا ذكرَ الشو
قَ ففاضت عيناه شوقاً ووجد
يا سقَى الله للرّصافة عَهْداً
كنسيم الصبا يرقُ ويندئ
وجنائاً فيه أهيمُ حنائاً
بيدَ أتى حرمتُ فيهنّ خُدا
مُسْتَهلاً كأدمعي يومَ ودع
ستُ تراها النّفاحَ مسكاً وندا
ليت شعري هل يرجع الدهرُ عيشاً
يشهدُ الطيبُ أنّه كانَ شُهْداً^(٢)

ويمضي على عادة الرائيين الذين يدعون لقبورهم مرثيهم بالسقيا، وكأنه حضر جنازة بلده وشهد دفنها، وها هو يدعو له بلا رجعة، فقد أصبح مجرد أطلال تُندب . ومعاهد تُذكر:

بنسية يا عذبة الماءِ والمُنَى
سَقِيَتْ وإنْ أسقيتِ صوبَ الرواجسِ
أحبّ وأقلبي منكِ حالاً وماضياً
بمُوحشةٍ موتاً بعهدِ الأوانسِ
ومن عجبٍ أنَ الديارَ أو أهيلُ
وأندبُها ندبَ الطلولِ السدورِ^(٣)

بهذه الأنفاس الحزينة وثقّ ابن الأبار مأساة مدينته، وأضاف عليها من مشاعره المتحسرة، المفرطة في الحزن والألم، فترك أبياته تحفة نفيسة تحكي مرارة الأيام وغدر الزمان.

وبهاتيك الأنفاس والمشاعر خلّد الرندي قصيدته الشهيرة ذائعة الصيت. تلك القصيدة التي سارت بها الركبان، وطار ذكرها في الأندلس وغيرها. فهتكت حجب الزمن، وفتكت صفحات التاريخ لتبقى شاهداً أدبياً وتاريخياً ونفسياً لما حدث في تلك الربوع من مرارة الأحداث، وضيق البلدان، وتبدل الرجال. وخيم الحق، وعلو الباطل.

(١) ديوانه: ص ٣٢٠.

(٢) م. ن. : ص ١٧٥.

(٣) م. ن. : ص ٤٠٠، الرواجس: سفردما رجس . وهو القنر.

وهي - القصيدة - تحريض وندب، وجهاد، وبكاء ورثاء، وعزاء وتسالية وتصبر، وتحسر وتأسف... وهي (بجوها العام مغلفة بنبرة حزن كئيبة. ونفساً اتعاط واعتبار، تبكي أقول نجم الأندلس وانسحاق شموخها وغياب علومها ومنابرها، وخلوها من الإسلام. ولا ينسى الشاعر أن يتأسى بالماضي فيضرب الأمثال والشواهد من غير أرهاق أو اكتظاظ يذهبان بسلاستها وروعتهما)^(١).

وقد بلغت الشهرة بالقصيدة مبلغاً عظيماً جعل المقرئ يشك في أنها زبدت عليها من أناس شهدوا سقوط غرناطة وبسطة، أي بعد وفاة شاعرها الرندي بقرون^(٢). وما هذه الزيادات التي طالقت القصيدة الأم إلا لاجباب الناس بها، وكثرة تداولها بينهم، ومعرفتهم بها وبما فيها. وهل كتب الخلود لمعلقة عمرو بن كلثوم إلا بالزيادات التي انهال عليها باحثو الأدب الجاهلي ودارسوه؟! وهل تعقبت الزيادة الأبيات الأصل ما لم تستهر هذه الأبيات على كل لسان، وفي كل زمان ومكان؟!.

وحسبنا هنا أن نشير إلى لوحة واحدة هي بكاؤه على المدن. ورثاؤه لنها، تاركين اللوحات الأخرى لباحثين كثر^(٣)، اعتنوا بها وأدقوا في معانيها فخرجوها على وفق ما أراد شاعرها، وما ابتغاه من نظمها. هاك قوله بندب ضياع مدن الأندلس التي وقعت بيد الأعداء:

فاسألْ بِنفسِيْةٍ ما شَأْنُ مُرسِيَةٍ	وَأَيْنَ شَاطِئَةٍ أَمْ أَيْنَ جِيْـئَانِ؟
وَأَيْنَ قَرطِبةٍ دَارُ العلومِ فَكَمْ	من عَالَمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَأْنُ
وَأَيْنَ حِمصٍ وما تحوِيهِ من نَزْهِ	ونَهْرُهَا العَذْبُ فَيَـئَاضُ مِلَانُ
قَوَاعِدُ كُنَّ أَرْكَانُ البِلَادِ فَمَا	عَسَى البَقَاءُ إِذْ لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ
تَبْكِي الحَنِيفِيَّةُ البِيضَاءُ مِنْ أَسْفٍ	كما يَكْـئُ لِفِرَاقِ الأَلْفِ هَدِيانُ

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: ص ٢٢٢.

(٢) ينظر: نفح الطيب: ٤٨٨/٤.

(٣) ينظر: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة: ص ٣٠٧-٣٦٠، تأريخ الأدب العربي - عصر الدول والإمارات: ص ٣٨٨، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس: د. محمد رضوان الداية، دمشق ط ١٩٧٦، ص ٩٠-٩٣، الأدب الأندلسي في عهد الموحدين: ص ١٤٢، ملامح الشعر الأندلسي: ص ٣٠٩-٣١٤، الشعر في عهد المرابطين والموحدين: ص ٣٢٢-٣٢٦، الأدب الأندلسي: (د. منجد)، ص ٣١٩-٣٢٠، مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص ١٠٩-١١٠، الفن والحروب وأثرهما في الشعر الأندلسي: ٢٢٢/١-٢٢٣، الرثاء في الشعر الأندلسي: ص ١٨٧-١٨٩.

على ديار من الإسلام خاليةً قد أسلمت ولها بالكفر عمران^(١)

فقد غدت هذه المدن (ممتحنة بائسة، تطوف عبرها مواكب الكفر والدمار، وتمسح جنباتها ظلال الأسى، فتتعدم الألوان وتتحول إلى عتمة كثيفة تنكي شبابها وترثي أيامها الزاهرة المورقة)^(٢):

حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلا نواقيسٌ وصُلبانٌ
حيث المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ حتى المنابرُ ترثي وهي عيدان^(٣)

ولئن لم يعيش حازم القرطاجني إلا بداية المأساة في شرقي الأندلس إذ غارها في حدود سنة ٦٣٧هـ^(٤)؛ إلا أنه كان يعيش بخياله وأدواته - الشعر - كل ما يتعرض له ذلك الشرق من نكبات وما يقاسيه من محن. وما أن يسمع بما يحل في مراتع شبابه من خراب وعدوان، حتى تهيج به الذكرى فيعرب عن حنينه وتوقه لتلك المراتع والجنان، ولا يخلو هذا الحنين من بكاء مرير، وأسى عميق^(٥).

وإذا وصلنا إلى نهاية بقاء المسلمين في الأندلس، فلم تكن أفضل حالا من العصور التي سبقتها، إذ لم تبق إلا غرناطة وما يعود إليها سياسياً وإدارياً. وفي هذه النهاية المأساوية دبج الشعراء قصائد رقيقة تحكي تلك الحضارة التي تغيّرت. وتلك المعالم الدينية - من مساجد ودور علم ومدارس - التي تبدلت حيث تحولت الجوامع إلى كنائس، ورفع صوت نواقيسها بدل الأذان. وقد عبر ابن المرباط (من شعراء بني الأحمر) بلوعة وأسى عن حزنه لما أصاب بلاده، وعن ألمه لعدم إيجاد أهلها من قبل أخوانهم المسلمين بالمغرب، يقول:

كم جامع فيها أعيد كنيسةً فإهلك عليه أسى لا تتجادر
القس والنفاقوس فوق مناره والخمر والخنزير وسط المسجد

(١) مجموع شعره: ص ٦٣٧.

(٢) الشعر في عيد المرابطين والموحدين: ص ٢٢٤.

(٣) مجموع شعره: ص ٦٣٧.

(٤) ديوانه: مقدمة المحقق، ج.

(٥) ينظر: ديوانه: ص ٥ - ١١٤، ص ١١٥، قصائد ومقطعات: ص ٣٢، ص ٤٢ - ٤٣، ص ١٢٥ - ١٢٦.

كم من أسير عندهم وأسيرة فكلاهما ينبغي الفداء فما فُدي^(١)

ويحدثنا أبو العباس الدقون (ت ٩٢١هـ) عن أحوال غرناطة في حصارها وسقوطها . فما هو أولاً يصف الجيش الكاثوليكي الغازي، قوة وعدة:

سطا بجيشٍ كموج البحر في عددٍ نعم ، وفي عددٍ من رهطٍ أبطالٍ مؤيداً باجتماعِ المصرِ يتبعه شرُّ الخلاقِ مسروراً بأقبال^(٢)

ويكي ابن الدقون غرناطة مشيراً إلى تلك الأخطار التي تحدث بها ، ويدعو أهل فاس للاعتاض بما جرى في غير غرناطة من مدن الأندلس:

هذا النذيرُ جهاراً يندرُ هنا والأذنُ في صممٍ عن قيلٍ أو قالٍ ونحنُ في غفلةٍ عما يرادُ بنا نمشي على مهلةٍ من طولِ اسهالٍ يا أهلُ فاسٍ أما في الغيرِ موعظةٌ إنَّ السعيدَ لموعظٍ بأمثالٍ

وتتحو القصيدة منحى آخر، إذ يدعو ابن الدقون إلى ترك الأندلس التي صارت كلها تحت قبضة الأسبان من جهة، ويستجد بملوك المغرب والمسلمين هناك من جهة أخرى:

كيف الحياةُ إذا الحياتُ قد لفحت على السواحلِ أو همّتْ بإرسالٍ ولا نرومُ في أمانِ الرومِ منزلةً خوفاً على الدينِ أو بعداً لإتزالٍ

(ولا يعدّ موقف ابن الدقون انهزامياً كما هو الأمر مع ابن العسال من قبل؛ لأن الفترة التي عاشها ابن الدقون مختلفة تماماً عن الفترة التي كان فيها الآخر والتي كانت تتطلب آنذاك نصالاً ودوباً لاستعادة طليطلة واسطة قلادة الأندلس ونقطة دائرتها)^(٣). لقد احتلت الأندلس كيان الشاعر ومشاعره ، فهو يدعو لمغادرتها على أن يراها بسئل هذا الصغير فـ (هذه الروح المؤمنة بقضيتها، والتي كان يعبر عنها الشعراء لم تنته بنهاية سقوط "غرناطة" ولم يكن الأندلسيون يستسلموا بسهولة ، في أرضهم ومعالم حضارتهم .. إنهم

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر: ٤١١/٧.

(٢) أزهار الرياض: ١٠٤/١ وما بعدها.

(٣) مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص ١١١.

أبدوا بسالة وشجاعة من أجل الذود عن مقدساتهم ، وعن كيانه وجودهم . وقد استرخصوا في ذلك كل غال وثمين^(١).

أما عن القرن التاسع الهجري فكان مرحلة حاسمة، بنهايته كانت جميع الحصون والقلاع والمدن في قبضة النصارى ، فبكاها شعراء هذا القرن صادقين مخلصين . ولنا في دراسة د. قاسم الحسيني مثالا حيا على هذا البكاء، وشاهداً شاخصاً على شعر ذلك القرن^(٢).

وبطبيب لنا أن نختم كلامنا عن المدن الأندلسية وراثتها من قبل الشعراء ، بالإشارة إلى تلك المراثية المجهولة الهوية والتي يجمل فيها الشاعر أسباب سقوط المدن، بعد أن يبكيها بكاء حاراً، ويتحسر لما حل بها وبأهلها بعاطفة قل أن نجد مثلاً. وقد قسم د. الطاهر أحمد مكي^(٣) القصيدة إلى خمسة محاور:

المحور	الغرض أو الاتجاه من المحور	عدد الأبيات
الأول	بكاء رُندة والتحسر عليها، والتغيرات الدينية والاجتماعية والسياسية التي طرأت عليها بعد سقوطها.	٦٣ بيتاً
الثاني	بكاء مدن أخرى كمالقة الحسنة وما حولها كبش والمنكب وبسطة ووادي آش، ويتضمن الحديث عن غرناطة وجمالها ووصف مفاتنها.	٢٢ بيتاً
الثالث	شرح أسباب النكبة التي هي نتائج لمقدمات سبقت وهذا العنصر ينفرد صاحب القصيدة عن الشعراء السابقين فهم لم يذكروا الأسباب بل؛ اكتفوا بالبكاء والتحسر.	١٩ بيتاً
الرابع	الحث على الجهاد ودعوة المسلمين للقيام به. ويتضمن وصف الحالة التي آل إليها الدين الإسلامي، وسوء العاقبة لمن لم يلب الدعوة لجهاد الأعداء وإنقاذ المسلمين شرقاً وغرباً.	٢٦ بيتاً
الخامس	الدعاء من أجل اغاثة المسلمين، ومن أجل تثبيت شمل النصارى.	١٥ بيتاً

(١) الأصوات النضالية والانهازية في الشعر الأندلسي: ص ١٥٥.

(٢) ينظر: الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري: ص ١٩٢-٢٠١.

(٣) ينظر: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة: ص ٣٧٦-٣٨٢.

هذي كانت الخطوط العامة للقصيدة، ولا يخفى على القارئ كم استأثر رثاء المدن بالاجزاء الأولى، وبأغلب الأبيات وأما عن الخطوط الدقيقة التفصيلية فالتساعير يبدأ الحديث عن رُندة، وعن أهلها وما حدث لها. وهو بصيغة الاستفهام الإنكاري يتساءل في حيرة وشك أحدث لرندة ما حدث حقاً؟ أهدمت منازلها؟ واستبيحت مبانيها؟ وأظلمت أرجاؤها؟ وتبدلت معالمها ومنازلها؟ فلنسمع قوله:

أحقاً خبنا من جِو رُندة نورها وقد كُسفت بعدَ الشُّموسِ بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت منازلُها ذاتِ العُلا وقصورها
أحقاً خيلتي أن رُندة أفقرت وأزعجَ عنها أهلُها وعشيرُها
وهذه مبانيها وثُلث عروشُها ودارت على قطبِ التفرقِ دورُها

ذلك الاستفهام جلب كل تلك الحسرة والظلمة للشاعر الذي بات غير محقق لما حدث لمدينة كانت يوماً ما من أمنع الحصون في الأندلس، وأكثرها قوة وبأساً:

وكانت عقاباً لا ينال مطارُها ومعقلٌ عزّ، زاحمُ النسرِ صُورُها
هوت رُندة الغراء، ثم حصونُها وانظارُها شُنعاء. عزّ نظيرُها^(١)

إن تلك الحصون المنبجة، وتلك القوة المخيفة فقدت إسلامها وإيمانها التي كانت تستند منه القوة والمنعة والبأس، فلا ريب أنها بهذا فقد خسرت كل شيء. فما أن داحمها النصارى حتى فرقوا كلمة أهلها، وبددوا أحلامهم، وهاجموا ساجدهم وقلوبها كنائس:

تسلّمها حزبُ الصليب وقادها وخانت شُروداً لا يقادُ نفورُها
وقد ذهبَت أديانُها ونفوسُها وقد دُثرت تحتَ السِّباعِ دُثورُها
فبادَ بها الإسلامُ حتى تقطعت مناسِبُها، واستأصلَ الحقُّ زورُها
وأصبحتِ الصليبانُ قد عُبدت بها تماثيلُها دونَ الإلهِ وصورُها
لقرعِ النواقيسِ اعتلى بمنارِها كرائه أصواتٌ يروعُ صريرُها
فيا ساكني تلك الديارِ كريمةٌ سقى عهدكم مزنٌ يصبو نميرُها

(١) قصيدة رائعة في رثاء الأندلس: ص ٣٤٣.

وتستمر هذه العاطفة الحزينة، وهذه النفس الملتاعة تقص علينا ما حدث لإسلام مالقة وللمسلمين فيها. وتتفاقم هذه العاطفة، ويزداد ذلك العويل كلما وصل الشاعر إلى أملكن العبادَة وما حل فيها. فإن ما حل لم يكن أن يُنسى على مر الأزمان، وتعاقب السنين:

فوا حصرتا كم من مساجد حولت وكانت إلى البيت الحرام شطورها
ووالسفا كم من صوامع أوحشت وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى وآياتها تشكو الفراق وسورها^(١)

ويستمر الشاعر في الحديث عن هذه الفاجعة إلى نهاية المحور الأول الذي يخص رندة، مستخدماً هذا الاستفهام الذي يخرج للتهويل والتعظيم. ليصف فداحة الموقف ، وكبير الفقد والمصاب.

في المحور الثاني؛ يبكي الشاعر على مالقة وما حولها من مدن ، وكيف تغيرت بها الأحوال وعصفت بها الأيام. ويتحدث عن هذه المدن وقد خلت من أهلها (المسلمين)، فلم يبق فيها إلا المشركين، يعيثون فيها فساداً، وإجراماً:

فمالقة الحسناء تكلى أسيفة قد استقرغت ذبحاً وقتلاً حجورها
وجزت نواصيها وشلت يمينها وبذل بالويل المبين سرورها
وقد كاتت الغربية الجنن التي تقيها فاضحى جنة الحرب سورها
وبلش قطت رجلها بيمينها ومن سريان الداء بان قطورها
وضحت على تلك الثنيات حجرها فأقفر مغناها وطاشت حجورها
ويا لله إن جنت المنكب فاعتبر فقد خف ناديمها وجف نظيرها^(٢)

ومن ثم يأتي الحديث عن غرناطة وهو يفاضلها على الأمكنة كلها فلا يوجد مكان يضاهيها لا في العراقيين ولا في عموم البلاد، حتى وأن غلبها الحزن، وأكتفتها الأسى وكل ما فيها مأتم وعزاء. ومن ثم يتحدث عن المرية بحزن كبير، كيف لا وهي مدينته ومجمع ذكرياته، ومحل أنسه:

وما أنس لا أنس المرية إنها قتيلة أوجال أزيل عذارها

(١) قصيدة رائعة في رثاء الأندلس: ص ٣٤٤.

(٢) م. ن.: ص ٣٤٦.

وهي منازل آبائه، وأول أوطانها التي عرفها وأحبها:
منازلُ آبائي الكرام ومنشئُ وأولُ أوطانِ غذائي تميرُها
وأقروا عليها سلامي تحيةً تجددُها أصالُها وبكورُها^(١)

بعد هذا السلام يتجه الشاعر نحو مدينته ليتحدث عن فاجعتها، وفاجعة أهلها. وهو في هذا الحديث لا يبتعد كثيراً عن ما قدمنا فيه القول في بكائه لرندة وبلش والمنكب ومالقة وغرناطة. فالقصيدة تسير على وتيرة واحدة من العاطفة، وشعور واحد من البكاء. كما أنها لا تبعد عن التركيز على المعاني الدينية وعلى معالم الإسلام ومبادئه التي استباحت، وكثر فيها الطعن والتدمير والتغيير.

ويطلب الشاعر من أهل الأندلس بعد هذه المصائب والنكبات التي حلّت بهم وبمدينهم التوبة والأوبة إلى الله - عز وجل - بعد أن شرح لهم كم بلغوا من الأسفاف والتبذل والتهكم بشعائر الله وحرماته حتى أوردتهم - سبحانه - الموارد، وسقامهم كلس العذاب في الدنيا قبل الآخرة. وعلى الرغم من كل هذه الويلات والأزمات التي وقعوا فيها، وعلى الرغم من كل هذه الانتهاكات التي اجتروها، إلا أن الله - سبحانه - العفو الغفور فلا بد من رجعة صادقة، وتوبة نصوحا. ومن ثم استغفار وجهاد ودعوة لاسترداد ما استباحه العدو، فإنه مهما قوئ فهو ضعيف، ومهما عدل فإنه ظالم. ومنهما طغى وامتك ودمر فهو صاحب العقاب السينة، والمصير المشؤوم. ولا ينسى الشاعر أن يخص أهل أرضه بالدعاء، راجياً من الله - عز وجل - أن يرددهم إلى دينهم. ويمكنهم من عدوهم، حتى يسترجعوا البلاد، ويقيموا معالم الحق. بهذه اللوحات وفق الشاعر كما وفق غيره من شعراء الأندلس في الوقوف على تلك المدن والممالك التي انهارت وخربت فخرجوا منها بقصائد نفيسة وظاهرة جديدة (استطاع الأندلسيون أن يضيفوها إلى أدبنا العربي غرضاً جديداً، وأن يشدوها إلى قبارة الشعر وتراً طريفاً عزفوا عليه حيناً من الزمان ألحانهم المؤثرة، وأنغامهم الشجية)^(٢).

(١) قصيدة رائعة في رثاء الأندلس: ص ٣٤٧.

(٢) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي: ص ٣٢٤.

المبحث الرابع: التحول المكاني.

(إن نظامنا المكاني تتحدد ملامحه وطبيعته من خلال تدرج يكمل حركة الشخص ونموه ووعيه)^(١). وأن هذا التدرج لا يمكن أن يكون بمنأى عن صلات وعلاقات تحدد مسار الشخصية وتفرض عليها فروضات تعود إلى واقع معاش، أو متبدل (فئة علامات اجتماعية تحدد البقاء في مكان ما، وثمة أنماط من المعاناة النفسية تفرض الرحيل عنه، وثمة صيغ تعبيرية تكشف عن جوانب لا حصر لها من الأحداث التاريخية التي تستدعي "التحول المكاني". أو التعامل مع قوانين الحياة السائدة سرود فعل استثنائية تصون كرامة الإنسان)^(٢).

وبناءً على هذه العلاقات والأنماط نشأ عنواننا (التحول المكاني) وأثره عند الشاعر الأندلسي بعد أن كان لهذا التحول أثراً بيناً عند الشاعر الجاهلي^(٣)، والشاعر الأموي^(٤)، والشاعر العباسي^(٥). وكان لكل تحول ظروفه الذي يستدعيها طموح الشاعر، أو مواقفه الذاتية الخاصة من الحياة والمجتمع، أو فقدته لعلاقات المودة والصفاء بينه وبين أبناء جلدته إذ شرختها صروف الدهر، وتبدلت إلى نوع من المعاداة، بل؛ والطرده أحياناً. فيعاني الشاعر تحولاً مفروضاً، (فالتحول المكاني موقف مضاد لفكرة البقاء على الضيم الذي يعاني منه الفرد أو الجماعة على أرض ما)^(٦). فيا ترى كيف عاش الشاعر الأندلسي هذا التحول بكل أبعاده وأسبابه؟ وكيف كان المواطن الجديد -واقعاً وطموحاً-؟

أبو الصلت الداني، شاعر عاش التحول المكاني، إذ يقال أنه عاش عشرين سنة في الأندلس ومثلها في مصر، ومثلها في تونس^(٧). والناظر في شعره ليرى ذلك التحول

(١) حواريات المكان: إدوارد هال، ت: طاهر عبد مسلم، مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد، ١٩٩٧، ٤-٣ ص ٣٩.

(٢) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام: ص ٢٢٣.

(٣) ينظر: البناء الفني في ديوان الهذليين: ص ١٥٦-١٥٧، المكان في الشعر العربي قبل الإسلام: ص ٢٣٥-٢٣٨.

(٤) ينظر: الاغتراب في الشعر العباسي: ص ٨٤.

(٥) ينظر: م. ن: ص ٩١.

(٦) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام: ص ٢٢٤.

(٧) التكملة: ٢٠٣/١، نفح الطيب: ٣٠٨/٢، ديوانه: (مقدمة المحقق) ص ١٣.

بوصفه الأرض التي انتمى إليها ومدح أصحابها وأرباب النعمة فيها^(١)، فهل كانت أوصافه الكثر ، وتقننه في تلك الأوصاف تعني تحولاً مكانياً محموداً صدرت عن ذات راضية هائلة؟ وهل هي - الأوصاف - قبلت من دواعي المواطنة الحقيقية للمكان الجديد بكل تداعياته وفرضياته؟

إن شاعرنا الداني بوصفه المكان الجديد ، ولا سيما المظاهر الطبيعية التي توجد في هذا المكان، إنما يهرب من واقع مقيت، ومكان قاسٍ مؤلم. أسهمت في قساوته عوامل الغربة الدائمة، وأسباب السفر الطويل، وتنطعه على أبواب الممدوحين يستجدي عطاءهم وهباتهم. ولذا؛ ما أن حُبس أو أُعتقل، أو هجا أو رُئى حتى وجد الفرصة سانحة للتعبير عن كنه المشاعر التي فرضها ذلك المكان - المتحول - والذي أبقى الذات في صراع نفسي اجتماعي ثقافي، ما لبثت أن تصرح عن مقتها له بدلالات مبطنة، وتوجسها من مخاطره بكلمات وأغراض مؤولة . فهو ما أن حُبس - في مصر - حتى راح يفخر بنفسه ويسمها بأنها محسودة ، ممنوعة أن تُعطى سكانتها الحقيقية، أو أن تتال منزلتها التي يجب أن تتال. يقول:

يا ربّ ذي حسدٍ قد زدتهُ كمداً إذ رامَ ينقصُ من قدري فما نقصا
إني رخصتُ ولم أنفقْ فلا عجبَ للفضلِ في زمنِ النقصانِ إن رخصا
وإن حُبستُ فخيرُ الطيرِ محتَبَسٌ متى رأيتَ حداةً أودعَ القفصا!!^(٢)

وهو ما أن رُئى - أمّه - حتى وعظ بترك الخلان ، والتجافي عن الاصدقاء ، فهم ما بين حاسدٍ وحاقد . وما هذه النظرة التشاؤمية التي نراها في هذي الأبيات. إلا أثر ذلك التحول المكاني، ولعننه التي أفقدت الشاعر ثقته بالآخرين، مهما كانت صلتهم به:

ولم يبقَ في الباقيْنَ حافظٌ خُلِبَ فعشٌ واحداً ما عشتَ تنجُ وتسلمِ
فلسْتَ ترىَ إلا صديقاً لمؤسّرِ حسوداً لمجدودٍ عدوّاً لمعدمِ
وكنْتَ إذ استبدلتَ خلاً بغيره كمستبدلٍ من ذنبٍ قفرٍ بأرقمِ
فجانبُهُم ما اسطعتُ وأقبلُ نصيحتي ومن لم يطع يوماً أخَ النصيحِ يندمِ^(٣)

(١) ينظر: ديوانه: ص ٥٥، ص ٦٠، ص ٦٩، ص ٧٥، ص ٨٩، ص ٩٣، ص ٩٨.

(٢) ديوانه: ص ١١٠.

(٣) م. ن. ص ١٤٢.

وتخرج مثل هذه النظرة البائسة اليائسة إلى حدود الدنيا بأجمعها، فيصفها أنها ليست دار الحر، أو مبتغاً لصفو عيش، بل؛ هي أساس كل ملمة وأصل كل دنية. يقول وقت أعتقل بمصر:

متى صفت الدنيا لحر فابتغى بها صفو عيش أو خلوي من الحزن
وهل هي إلا دار كل ملمة امض لا حشأ الكرام من الطعن
وإن هي لانت مرة لك فأخشها فإن أشد الطعن طعن القنا الدن^(١)

وعلى هذه الشاكلة يكون الداني ممن قست عليهم الحياة، وحاربهم المكان أينما ذهبوا، فعاشوا في ضنكه، ثم تمردوا عليه.

ويشهد ابن صاحب الصلاة سمات التحول المكاني، وإن لم يغادر مكانه. فما أن فارقه الوالي، والأمير في غرناطة إلى اشبيلية فاتحاً ومحرراً حتى أصبح المكان الذي عهده موحشاً، والم المنزل الذي كان ينعم بأفراحه وسرائره مقفراً. يقول مرتجلاً وقد مر عليه فذكر حسن المعاهد، والتأس بتلك المشاهد:

عهدناك يا ذا المنزل الرحب منزلاً لسيدنا بل افضل العصر أجمعنا
تحط بك الآمال من كل جانب ونشرب فيك الأنس مثني ومربعنا
ويحضرك الافصال مدة يومنا فله ذاك اليوم مرأى ومسمعا
فها أنت هذا اليوم أوحش منزل رأيناك ببداء وقفراً وبلقعا^(٢)

ولنا في تجربة ابن جبير مواعظ وحكم أخذت من الأمكنة التي زارها ردحا من الزمن، وعاش في أهلها وبين ظهرائهم — مودة أو عداً — مدة ذلك الروح، فإذا هو مر بسبئة بكى وزوجه، واستذكر سالف أيامه، فقد أثار المكان شجناً غابراً، واحزاناً دفيناً ما لبث أن صرح عنها بقوله:

بسبئة لي سكن في الثرى وخل كريم إليها أتى
فلو أستطيع ركبته الهوى فزرت بها الحبي والميتا^(٣)

(١) ديوانه: ص ١٥٣.

(٢) تلخيص المن بالإمامة: ص ٣١٠.

(٣) شعر ابن جبير: ص ٣٣.

وكم كانت التجربة مريرة إذا ما قُيست بعلاقات ابن جبير مع من سكن بقربهم، أو حظي بمودتهم، أو أراد الزمان الغادر أن يكونوا له خلا، وصحبا:

صبرتُ على غدر الزمان وحقدِهِ وشالِب لي السَمَّ الزُّعافُ بشهدهِ
وجربتُ إخوان الزمان فلم أجِدْ صديقاً جميل الغيب في حال بعدهِ
وكم صاحبِ عاشرتهُ وألفتُهُ فما دام لي يوماً على حُسنِ عهدهِ

وعلى الرغم من مرارة الأبيات ، وشدة المعاناة التي بدت على صاحبها لمعاشرته أولئك الأصحاب المتغيرين بتغير المكان وتحوله، إلا أن ابن جبير لم يكن كالداني تشاوماً ، إذ قرر هذا الأخير ترك الناس جميعاً، وأن يعيش الإنسان بمفرده، متجافياً عن الآخرين ، مبتعداً عن آفات قلوبهم من حسد وحقد وغيظ وكره. فابن جبير يعرف العزلة. ويصون حقوق من حفظ لهم المودة، أو بادلته المحبة، مؤمناً بأن الحظ هو الذي يكتب للفتى شقاء أو سعادة، وما الخلان والزمن والمكان إلا أدوات تزيد من ذلك الحظ أو تنقصه :

فكُن ذا اقتصادٍ في أمورك كُلِّها فأحسنُ أحوالِ الفتى حسنَ قصدهِ
وما يحرمُ الإنسانُ رزقاً لعجزه كما لا ينالُ البرزقُ يوماً بكدهِ
حظوظُ الفتى من شقوةٍ وسعادةٍ جرت بقضاءٍ لا سبيلَ لردِّهِ^(١)

ويبرز هذا الشقاء ، وتطر هذه اللوعة عندما يجد الشاعر في الأماكن الحجازية التي زارها أكثر من مرة متنفساً لهوموه، ومهرباً من آهاته. أو يُنكر أحد ما في تلك الأماكن من روحانية ربانية؟ أو ما يسري منها من نفحات إيمانية تمر على القلب فتحي منه ما تعلق بأدران الدنيا وويلاتها؟ يقول عندما ما حج قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - مهتماً، مباركاً إذ حطت عن النفس أوزارها، وأن السعادة مضمونة بذلك الحج، وبرؤية ذاك المكان وأهله:

هنيئاً لمن حجَّ بيتَ الهدى وحطَّ عن النفسِ أوزارها
وإنَّ السعادةَ مضمونةٌ لمن حجَّ طيبةً أو زارها^(٢)

(١) شعر ابن جبير: ص ٤٠.

(٢) م. ن: ص ٦٥، وينظر: ص ٤١، ص ٥٧-٦٠، ص ٦٢.

وعلى مثل هذا الجنس التام، المتفق في الصورة الممدود في حُلَى الشعر^(١). يقول في فضل زيارة أرض الحجاز، وبلوغ قبر الرسول — عليه الصلاة والسلام — والطواف حوله:

إذا بلغ المرء أرض الحجاز فقد نال أفضل ما أمّله
وإن زار قبر نبي الهدى فقد أكمل الله ما أمّله^(٢)

وما إن تحركت الرحلة نحو الحجاز وأرض المدينة، حتى ثارت في نفس ابن جبير عواطف الحنين، وأدركت روحه الهائمة بحب تلك الديار حلاوة التوجه نحو تلك الأراضي، وعذوبة لقاء أهلها. يقول وهو لا يتردد في ذكر الأمكنة التي يالغ رؤيتها، ويدفع به الشوق للسفر إليها:

أقول وقد دعيت للخير داع حننت له حنين المسامحة
حرام أن يلد لي اغتماض ولم ارحل إلى البيت الحرام
ولا طافت بي الآمال إن لم أطف ما بين زمزم والمقام
ولا طابت حياة لي إذا لم أزر في طيبة خير الأنام^(٣)

ولابن جبير قصيدتان في مدح السلطان صلاح الدين الأيوبي^(٤) وبتان القصيدتان طويلتان النفس موازنة مع شعره الذي تغلب عليه المقطعات. وهذا المديح لا يخلو من حيث التحول المكاني وفرضياته على الشاعر من أمرين:

١ — إن ابن جبير رأى في السلطان القائد — رحمه الله — الشخصية القيادية الحقّة التي فقدما في مكانه الأول (غرناطة).

٢ — إن ابن جبير في مكان جديد، يفرض عليه التعايش مع أهله والانخراط في أحداثهم. وعلى قضية بيت المقدس، وجهاد الأيوبي والمسلمين كانت من أهم تلك القضايا آنذاك.

(١) ينظر: جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: د. ماهر ميدي هلال، دار الرشيد للنشر — بغداد، ١٩٨٠، ص ٢٧٢.

(٢) شعر ابن جبير: ص ٨٣.

(٣) م. ن: ص ٩٣، وينظر: ص ٩٥ — ص ١٠٤.

(٤) ينظر: م. ن: ص ٤٦ — ٥١، ص ٨٧ — ٩٢.

وحتى في وقت الافراح، وزمن المناسبات السعيدة يفرض المكان الجديد حزناً على ابن جببر وغربة تجعله يذرف الدمع ألماً وكمداً في وقت كان يجب أن يذرفه سعادة وفرحاً، يقول وقد شهد العيد في أرض مصر:

شهدنا صلاة العيد في أرض غربة بأحواز مصر والأحبة قد بانوا
فقلت لخلي في النوى جند بدمع فليس لنا إلا المدامع قربان^(١)

(وما كل بيضاء شحمة) كما يقول المثل؛ فليست كل تجارب التحول المكاني هي غربة وشقاء وبؤس وجحيم، بل؛ يحتمل أن تكون تجارباً ذا بهجة وحب وسرور وطرب. فهذا ابن خروف القرطبي (من أهل المائة السابعة)^(٢) الذي رحل إلى المشرق، فطبق ذكره هنالك الآفاق. وامتلت بحاسنه مسامع الشام والعراق، واستقر بطلب آخر امره يحدثنا عن تجربته في التحول المكاني الذي عاشه فيرى دمشق وكأنها جنة الحسن، وأن إقامه فيها كانت على مستوى عالٍ من السرور والسعادة والمحبة. إذ لا منغصاً ولا مراقباً، أو معيباً. هالك قوله:

أما دمشق فجنة بيني بها الوطن الغريب
لهم أي سام السببو ب بها ومنظرها العجيب
انظر بعينك هل ترى إلا محبباً أو حبيب
كل يبغ نفسه ما تشتهي مرحباً وطيب
في حيث لا داع هنا كسوى السرور ولا مجيب

(١) شعر ابن جببر: ص ٩٤. واعتقد جازماً - إن شاء الله - أنني لست بحاجة لإعادة الحديث عن شعر أبي حيان وتحوله المكاني، أو عن محنة ابن الخطيب ومقتله خارج ديار أهله ومنازلهم، ولا للحديث عن تجارب الشعر المواكب للحروب وما تعنيه أماكنها تحولاً وتغيراً بالنسبة للشعراء الذين أكثروا الشعر في تلك معارك التي خاضها الأندلسيون كالشاعر الملك يوسف الثالث، وشاعره ومادحه ابن فركون. إذ نرى أننا أشبعنا الكلام عنهم في الفصول السابقة - والحمد لله -.

(٢) الشاعر المحسن الشهير أبو الحسن علي بن محمد بن خروف القرطبي. أصله من القيظاف الخصر المضاف إلى أعمال غرناطة. وهو بين قرطبة وبينها. نشأ أبو الحسن في قرطبة ورحل إلى المشرق، فطبق ذكره هنالك الآفاق، وامتلت محاسنه مسامع الشام والعراق، واستقر في آخر أمره بطلب. ينظر: الغصون الياقة في محاسن شعراء المائة السابعة: (الترجمة السادسة): ص ١٤٣.

أَرْضٌ خَلَّتْ مَمْنٌ يَنْغُصُّ أَوْ يُرَاقِبُ أَوْ يُعْرِيبُ^(١)

ولا يرى ابن خروف العيد في المكان الجديد مثلما يراه ابن جبير جالباً لكل شؤم ولوعة وتحسر، بل؛ يحدث العكس تماماً إذ أن أيام دمشق التي ما في الأرض مثيلها أو صنوها، كلها أعياد، وأوقاتها كلها مسرات:

أما دمشقُ فما في الأرضِ مُشبهها جناتُ عدنٍ بها ما يشتهي البشرُ
أرضٌ لعمرِكَ ما فيها لمبتذلٍ ذامٌ يلومُ ولا في صفوها كدرُ
وكلُّ سبتٍ بها عيدٌ تعودُ به آمالهم وبه الزلاتُ تُغفَرُ
كلُّ إلى ما دعتَه نفسه عجلُ كأنما فرصةٌ قد جاءَ يبتدرُ
حيثُ الميادينُ كالديباجِ قد بسطت خضراً جرت حولها من مائها طُرُرُ
بها النعيمُ غدا للناسِ مكتملاً مطولاً وهو في الآفاقِ مختصرُ^(٢)

والتحول المكاني يحمل دلالات عدة. فهو ذو دلالة اجتماعية تتمثل في علاقات الجوار التي يقيمها الشاعر المنتقل إلى المكان الجديد. فكثيراً ما يلجأ الإنسان إلى أقوام آخرين، أو إلى بلاد أخرى هارباً من ظروف معينة فرضتها طبيعة البلاد الصعبة التي كان يعيش فيها، أو خوفاً من سلطان، أو تحسباً لوشاة وما شابه ذلك. فالجوار -- تندد الشاعر وغيره -- من أهم العلاقات الإنسانية التي تكشف عن عمق الصلات البشرية. وعظيم القيم الأخلاقية ومدى الالتزام بقوانين المجتمع السائدة وأعرافه وتقاليده التي تحافظ على حقوق الآخرين، وتحفظها لهم.

(وفي الشعر تفسر قيمة مكان الجار بدلالة القوم الذين قبلوا جواره أو أوطنه من استجار بهم في ديارهم)^(٣). وعلمنا لا نرى ما يسر إذا نظرنا في بعض من نصوص الشعر الأندلسي التي تفسر تلك القيمة، وأولئك القوم الذين لجأ إليهم الشاعر الأندلسي.

(١) القصص البائنة في محاسن شعراء المائة السابعة: ص ١٤٣-١٤٤.

(٢) م. ن: ص ١٤٤.

(٣) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام: ص ١٤٠.

فالرصافي البلنسي يجيب قصيدة أبي عمرو بن حربون الشلبي (ت بعد ٥٦٧)^(١)؛
ويذكر أهمية الجوار الاجتماعية. وما تعارف عليه العرب من حفظ لحقوق جاره
واكرامه وتيسير اقامته، لكن؛ هؤلاء القوم الذين جاورهم شاعرنا الرصافي لم يكونوا
كذلك. فهم لم يراعوا تلك الحقوق، ولم يحفظوا له عهدا. فأثر الرصافي القناعة بنا نل
من الدنيا، والمضي قدما يحفظ كرامته وماء وجهه، ما دام أن الله - سبحانه وتعالى -
هو من يقسم الأرزاق على وفق معلوم، ومقدار محدود. يقول:

عجبتُ من معشرٍ تمطي مآثرهمُ من الثناء عليها ظهرَ طيارُ
مبالهم رقدوا في لينٍ عيشهمُ عن جارهم وهو محبوسٌ بإقتارِ
ما كانَ أقدرهمُ أن يأخذوا لكم على البديعة من الأيامِ باتشارِ
والحرُّ أكثرُ ما يزري بحاجتهِ توسَّطَ من خبيثِ النفسِ خوارِ
صونَ الفتى وجهه أبقى لهمتهِ والرزقُ جارٍ على حدٍّ ومقدارِ
قنعتُ وامتدَّ مالي فالسماءُ يدي ونجمها درهمي والشمسُ ديناري^(٢)

على الرغم من أن المكان بقي هو الشير في نفس هذه المقطوعة الشبية. الآلة ليذا
الجور والحيث الذي لاقاه الشاعر. إلا أن القيم الاجتماعية للعربي هي التي دفعت لنظم
هذه الأبيات وبالتالي التعريض بهؤلاء القوم الذين لم يكونوا بمستوى المسؤولية الحقيقية
تجاه شاعرنا، وضيقتهم الرصافي.

أما أبو حيان؛ فهو لم يتورع أو يحاذر وهو يقصّ علينا علاقاته مع جبرته من
أبناء مصر التي جعلها مكاناً وسكناً، إن يصفهم بالسوء وعدم الألفة، وانقطاع المودة
على الرغم من أنه الأديب المبرز والفقيه الذي يشار إليه بالبنان. وعلى الرغم من
معرفتهم له، وطول المدة التي أقامها بين ظهرانيهم. يقول أبو حيان:

عذيري من بني مصر فباتي أفدتهم العلووم ولا فخرارُ
أقمتُ بمصرهم ستين عاماً فلم يخلص لي فيهنَّ جارُ
وفارقتُ الأنسامَ وفارقوني فها أنا لا أزور ولا أزارُ

(١) هو أبو عمرو عبد الله بن حربون الشلبي كان من جملة كتاب ابن قسي زعيم المنديين ثم في جملة كتاب
السيد أبي حفص له شعر كثير أورده من ترجم لشخصيته، أكثر شعره الاماديح، وأكثر مدحيه من اسراء
الموحدين في المغرب. ينظر: زاد المسافر: ص ١٣١ - ١٣٢، تاريخ المن بالأمّة على المستضعفين:
ص ٢٤٤، ص ٢٤٥، ص ٢٥٤، ص ٢٥٨، ص ٢٦٥، ص ٢٦٩، الحلة السيرة: ٢/ ٢٠١، البيان المغرب:
٦١/ ٣، ٧٠، ٧٤، ٧٧.

(٢) ديوانه: ص ٩٨.

فإن ماتوا فلا أسفاً عليهم وإن متنا قد مات الخيـار^(١) مرة أخرى يبقى المكان هو المثير الدافع لنظم الأبيات ، ومرة أخرى يأتي التأكيد من قبل الشاعر على تلك القيم الاجتماعية للجوار التي عرفها العرب، وغذاها وبنى دعائمها الإسلام الكريم ، غير أن أبا حيان يؤكد على القيم التي تربط بين الجيران أكثر من تأكيد الرصافي عليها. فيؤكد على عدم الأخلاص، وعدم زيارة جيرانه وهو الذي أفاد البلاد والعباد بعلومه النافعة، وأدابه الفاخرة. وقد تعود نظرة أبي حيان لهذه القيم من هذا المنظار لكونها الباقية له بعدما فقد أهله، ومدينته وتكالب غير أهل العلم على العلم، وغير أهل الفقه على الفقه. كما أننا لا ننسى أن أبا حيان عاش في نهاية القرن الثامن من ذلك القرن الذي شهد زوال بغداد، وشهد زوال أهل الأندلس وتكالب الأمم من كل حذب وصوب على الأمة الإسلامية في كل مكان، فلا غرو أن تكون نظريته اندخالية للمجتمع الذي يعيش فيه نظرة خاصة ناقدة تدل على ما اعتلى ذلك المجتمع من تفـسـخ وانحطاط في مفاهيمه الاجتماعية والدينية والسياسية.

ومن دلالات التحول المكاني العداء والذم للمكان الجديد . وأقول أن هذا العداء ، والذم للمكان الجديد قد تعلق بنفسية الشاعر الأندلسي المنتقل إليه، مهما كانت أحداثه . أو كانت الناس التي تعيش على واقعه. فالشاعر الأندلسي كان قد تعرض لويلات وأزمات في الأندلس ، كما نه فقد مكانه أو منصبه، وأهله فلم تحمد سيرته، ولم يحمـد أدأوه في مهمته ولذا فهو ينظر إلى المكان الجديد نظرة عدائية نابعة من صميم تجربته للمكان الأول الذي فقد فيه كل شيء؛ أهله، ومنصبه، ومكانته.

فأبو القاسم محمد بن نوح الغافقي البُلنسي (ت ٦١٤هـ)^(٢)، كان مشاركاً في الفقه عالماً بالأحكام إلا أن سيرته القضائية في توليه لأمر قضاء شُقر ثم المرية لم تحمد، فصرف إلى مراکش وتوفي بها، فيا ترى كيف ستكون نظريته لمراكش ؟ وكيف سيكون موقفه منها؟ فلنسمع أبياته هذه:

مَرَاكُشُ إِن سَأَلْتَ عَنْهَا فَإِنَّهَا فِي الْبِلَادِ عَارُ

(١) ديوانه: ص ١٩١.

(٢) أبو القاسم محمد بن محمد بن نوح الغافقي البُلنسي من أهل بلنسية وقاضيا ودار سلفه سرقسطة. كان عالماً بالأحكام شاعراً مكثراً، أُمْتُدْعِي إلى مراكش سنة (٦١١). وكان ابن الأبار من شيعيه عند سفره إليها. توفي ابن نوح في مراكش سنة (٦١٤) وكان له من العمر يوم توفي ستون سنة أو نحوها. ينظر: تحفة القادم: ص ١٧٢، المقتضب من تحفة القادم: ص ١٢٤، المغرب: ٣٠٨/٢، الوافي بالوفيات: (ترجمة: ١٤: ٢١٦/١).

هوأوها في الشتاءِ ثلجٌ وحرُّها في الصيفِ نارٌ
وكل ماأثم؛ وهو خبيرٌ من أهلِها ، عقربٌ وفارٌ
فإن قد مكثتَ فيها فلن مكثى بها اضطراراً^(١)

الشاعر (الخافقي وغيره) ما يلبث أن يصب جام غضبه على المكان الجديد الذي انتقل إليه ضرورة ، ومن غير حول منه ولا قوة. فلاشك في أن مراكش مكان معاد للخافقي من حيث أنها عار ومنقصة على بلاد المسلمين، كم أن أجواءها لا تدع لساكنيها راحة أو اطمئنان.

وحتماً أن الخافقي ينظر إليها نظرة شخصية، ويعلل هذه النظرة بالإقامة الاضطرارية السيئة للمدة التي أقام فيها. وباستثناء هذه النظرة الشخصية الضيقة فإن مراكش لعبت دوراً سياسياً واقتصادياً كبيراً في بلاد المغرب لاسيما في عصر الدولتين المرابطية والموحدية^(٢).

وكان الكاتب الأديب أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي قد تولى القضاء وفي عدة مدن إفريقية^(٣). ومن هذه المدن مدينة شقنبارية^(٤)، الذي يبدو أنها قصرت به عن نيل آماله. وأردت به بعيداً عن تحقيق ما يريد. فأضافت له جرحاً آخر إلى جراحه التي كثرت لاسيما بعد فقدته بلنسية وبكائه عليها، وبعد هجرته الأندلس وهي مصابة متألمة . يقول المخزومي:

إن الشقاءَ برئ بشقنبارية جَسدي وأسلمني لا كبر داهية
من بلدة عَنانأت خيراتها لكن قطوف الشر منها دائية
ملك العقارب والرتلا أرضها والجو صاعقة والريح عاتية
قال الذين تخيروها منزلاً: فيها كنا عنب وعين جارية

(١) صبح الأعشى: ١٥٧/٣، الروض المعطار: ص ٥٤١. وفيه نقص البيت الأخير من الأبيات التي استشهدنا بها.

(٢) ينظر: معجم البلدان: ٩٤/٥، كتاب معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار: ص ١٠١-١٠٢، السردس المعطار: ص ٥٤٠-٥٤١، وصف أفريقيا: الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بابن ليون الإفريقي (ت بعد سنة ٩٥٧هـ) ، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي. محمد الأخضر. منشورات الجمعية المغربية — الرباط: ١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م: ١/١٠٠-١٠٦.

(٣) ينظر: أبو المطرف بن عميرة المخزومي (حياته وأثاره): ص ٨٥.

(٤) شقنبارية: مدينة في بلاد إفريقية بالقرب من بلاد الأريش. ينظر: الروض المعطار: ص ٢٠٨-٢٠٩.

فأجبت بالشهوات حَفَّتْ مثملاً حَفَّتْ بها نارُ الجحيمِ الحامية^(١)

أما ابن الخطيب فكانت مراكش تمثل بالنسبة لظروفه وانفعالاته ومكانته التي خسرها ومكانه الذي فقده وأهله الذين خسرهم ، ووزارته التي صرف عنها مكاناً جديداً معادياً ذات صفات مشؤومة . ولذا خاطبها لسان الدين بلوعة شديدة ، وبكاء عميق وغربة محرقة حينما قال فيها:

بلدٌ قد غزاه صرفُ الليالي وإباحُ الحريمِ منه مبيحُ
فالذي خَرَّ من بنائه قَتيلٌ والذي خَرَّ منه بعضُ جريحُ
وكان الذي يزورُ طيبٌ قد تأتى لهُ به التشريحُ^(٢)

ويمضي بين تلك الربوع والاطلال وهي عجماء لا تيين ، دوارس لا تقصح عن ملاعبها ومغانيتها، ما فيها إلا جمال قبر ، وملوك كانوا.. فأصبحوا:

أعجمت منه أربعٌ وظُلُولٌ صالَ قداماً بها اللسانُ الفصيحُ
كم معانٍ غبت بتلك المعاني وجمالُ أخفاهُ ذلكُ الضريحُ
وملوكٌ تعبّدوا الدهرَ حتّى أصبحَ الدهرُ وهو عبدُ صريحُ
دوخوا نازحَ البسيطةِ حتّى نالَ ما شاءَ ذابلُ وفصيحُ
حين شَبَّتْ لهم من البأسِ نارُ ثم هَبَّتْ لهم من النصرِ ريحُ^(٣)

ومن ثم يعرج ابن الخطيب على مثل هذا الأثر الكبير الذي تركه المكان الجديد في نفسه. فأبكى به قلوب النجوم، وأحزن له عيون السحاب ، ثم استعجب من أن تسكن داراً بجسدٍ وقد زهقت الروح، وانتزعت بحلولها هذا المكان:

أثرٌ يندبُ المؤثرَ لمّا طالَ بعدَ الدنوِ منه الروحُ
فقلوبُ النجومِ تخفقُ وجداً وعيونُ السحابِ حزناً تفوحُ
ساكنُ الدارِ روحها كيفَ يبقى جسدٌ بعدما تولى الروحُ^(٤)

(١) الروض المعطار: ص ٣٤٩.

(٢) ديوانه: ص ٣٧٦.

(٣) م. ن: ص ٣٧٧.

(٤) م. ن: ص ٣٧٧.

إن مثل هذه القصيدة إنما نبعت من شكوى ومعاناة دائمة لحياة عاشها أديب أريب، ومفكر ناضج كلسان الدين بن الخطيب . ولذا فلا نرى فيها آثار التقليد لشاعر العصر العباسي البحتري (ت ٢٨٤هـ) في رثائه للأطال والدارس من الأمكنة التي مر بها، أو جاءت بين مضامين أشعاره كما ألمح لذلك محقق ديوان ابن الخطيب^(١).

لقد نعمت مراکش — كما أشرنا — بمثل ما نعمت به غيرها من بلدان الإسلام من حيث البناء والحضارة والعمران، وكانت مميزة في الأمور الاقتصادية، والنواحي السياسية مبرزة من حيث الوظائف الإدارية التي جاءت بتلك الحضارة وجلبت ذلك التميز لما حباها الله من مكان ستراتيحي مهم جعلها بمثل هذه الخصائص، وخولها هاتيك المهام. فعندما يبكيها ابن الخطيب وغيرها، ويصف ما حل فيها من فوضى وفساد فلا يعني أنه يبكي من خلالها آثار المشرق وحضارته وعمرانه. فابن الخطيب من آثاره وتجاريه، رجل بحاث، وشاعر موهوب، ومؤلف نحريز وما إلى ذلك من مؤهلات جعلته في مصاف الشعراء المتقدمين في الأندلس والمغرب، فإذا ما رثى أو وصف أو مدح فلا يذهب بنا الكلام بعيداً، لنقول أنه جاء بما جاء به أبو تمام في مرثيته، والبحتري في أوصافه، والمتنبي في أماديحه فـ (ليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ولكن يعطى كل ما يستحق)^(٢).

كانت هذه أبرز مواقف الشاعر الأندلسي تجاه مكانه الذي عاش فيه مغترباً أو غريباً باكياً متحسراً لسقوطه أو لفقده. ونحن إذا ما عالجت هذه المواقف في نصوص هذا الشاعر التي أبانت عن هذا الكم الهائل من الأزمات والانفعالات تجاه هذه الأمكنة. وحاورنا تلك النصوص من خلال معطيات المكان ودلالاته وتداعياته على صعيد النص الشعري، فإننا بانتظار الزمن ليضع أمامنا مزيداً من دواوين الشعر الأندلسي، ونصوصه المفقودة فنتمكن من اكتشاف الجديد من مواقف الشعراء الأندلسيين نحو أمكنتهم، ونبين علاقاتهم ببيئاتهم، ومن ثم نحكم عليها جودة وقيمة.

(١) ديوانه: (مقدمة المحقق): ص ١٧٥.

(٢) الكامل في اللغة والأدب: محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر — القاهرة، (د.ت): ٢٩/١.